بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

خطـاب أدب الرحـلات في القرن الرابـع الهجـري

إعداد الطالبة
نـهلــة عبد العزيز مبارك الشقـران

إشراف الأستاذ الدكتور
سميـر استيتيــة

الفصل الثاني
٢٠١٠/٢٠٠٩

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري

إعداد

نهلة عبد العزيز مبارك الشقران

إشراف

أ. د. سمير شريف استيتية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في جامعة اليرموك، تخصص اللغة العربية/ لغة ونحو

لجنة المناقشة

أ. د سمير استيتية ..... رئيسا

أ. د حنا حداد ..... عضوا

أ. د ماجد جعافره..... عضوا

أ. د عبد القادر مرعي..... عضوا

أ. د عبد الكريم مجاهد..... عضوا

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإهداء

إلى من جعلني أبصر الحياة بلون وردي

وزرع في درويي انتظار إشراقة شمس أحلى

زوجي..... حسام

"أبو هادي"

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

شكر وتقدير

بعد أن أنهيت بفضل الله تعالى ورعايته هذه الرسالة، أتوجّه إلى الهادي المُعزّ بالحمد والشكر على جزيل نعمه، وفائض رحمته،ولطف قضائه.

وأتوجّه بالشكر الخالص إلى الأستاذ الدكتور سمير استيتية الذي غمرني برعايته الصادقة، وتوجيهه المخلص، ودعمه المعنوي والعلمي، فهو الأب الحاني والعالم الفاضل الذي شرُفت به اليرموك، فحفّزني على قراءة ما وراء النص، واستكناه خبايا الكلام، وزرع الإرادة والتصميم في دربي، وأعانني في كل مراحل بحثي، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور حنا حداد الذي علّمنا مصداقية البحث ودقته، وأعطانا من فيضه الكثير، وجعل التراث نقطة انطلاقنا. وأشكر الأستاذ الدكتور ماجد جعافرة على ما قدّمه من وقته وجهده ، وأشكر الأستاذ الدكتور عبد القادر مرعي الذي ساهم في نشر علوم اللغة وأساليبها ، وأشكر الأستاذ الدكتور عبد الكريم مجاهد الذي ما توانى عن تقديم العون لطالبه. فأشكرهم جميعا على تجشّمهم قراءة هذه الرسالة، داعية الله أن يبارك جهودهم ويجعلها في ميزان حسناتهم يوم القيامة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الملخّص

خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري

تميّزت الرحلات في القرن الرابع الهجري بطابع خاص، وكَثُر المرتحلون، وتعـدّدت أهدافهم، فأصبحت رحلاتهم ذات نظام لغويّ يحكمها، ويكشف عن وضع نفـسيّ لمرسـلها . وصف خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري الطبيعة، وصوّرها بقوالـب تعبيريّـة خاصة، كما وصف مظاهر الحضارة الدينيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة ، واهـتمّ بالإنسان خلقاً وخُلقاً، فوصفه أدقّ الوصف.

ترابط الخطاب، وتماسك في أبنيته، فاعتمد أساليب لغوية مختلفة كالتقديم والتـأخير، والتكرار، والترادف، والتقابل. وراوح في أوصافه بين تركيبي الإضافة والنعت، وفقاً لما يريد إيصاله لمتلقيه، من ثبات الوصف، وتأثيره في نفسه، أو عدم الاكتراث به.

تميّز الخطاب بآليات خاصّة كآليّة المقارنة التفضيليّة التي أظهرت الموصوف، وبيّنت تفرّده، بصور لغوية محدّدة، وآليّة الوصل العكسي، إذ بدت سمة عامّة فـي هـذا الخطـاب، يوظّف بها وصفا مزدوجاً للمكان نفسه، بين الإيجاب والسلب، من مختلف نواحيه، أو يقارنه بموصوف آخر، كي يظهره متفرّداً لا مثيل له؛ فيؤنس رحالته هذا التفرّد، ويخفّف عنه غربة الارتحال.

استخدم خطاب أدب الرحلات هذه الآليات، لبيان ما حقّقه مـن إنجـازات رحالتـه، فالرحالة شاهد وعاين، ووصف؛ فنقل ما لم ينقله غيره، وعرف ما لم يعرفه غيـره، فجـاء خطابه بموصوف لا يضاهى.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
الملخّص	هـ
الفهرس	و
المقدمة	١
الفصل الأول: الرحلات في القرن الرابع الهجري	٣
المبحث الأول: دواعي الرحلة	٤
المبحث الثاني: حصاد الرحلة	١٤
الفصل الثاني: أبنية الخطاب في أدب الرحلات	٢٦
المبحث الأول: وصف الطبيعة	٣٢
المبحث الثاني: وصف مظاهر الحضارة	٥٩
المبحث الثالث: الوصف الإنسانيّ	٧٨
الفصل الثالث: آليات الخطاب في أدب الرحلات	٩٣
المبحث الأول: آليّة المقارنة التفضيلية	٩٩
المبحث الثاني: آليّة الوصل العكسي	١٢٠
فهرس الجداول	١٥٤
قائمة المراجع	١٥٥
الملخّص باللغة الإنجليزية	١٦٢

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمة

نشأت الرحلات، وتعدّدت أشكالها، وحفظت جانباً عظيماً من الأدب والعلوم المختلفة كالجغرافيا والتاريخ، وصوّرت واقع كلّ رحالة. خاطب الرحالة ذاته قبل أن يخاطب غيره، ووصف موصوفه بدرجة تماثل تأثيره في نفسه، فشاهد، وعاين، وصوّر في خطاب ذي خصائص مضمونيّة فنيّة، وقوالب تعبيرية بنائيّة تُعَدّ معايير تحكم خطاب أدب الرحلات.

تميّز خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري بطرائقه الوصفية الخاصة، فوصف الأمكنة، وخلق منها مشابهات وجدانية تجعله لا يرى المكان الجغرافيّ، وإنّما يحرّره من أيّ سلطة، ليبدو مزدوجاً بين الواقع والتخيّل، فتصبح له صورة جديدة، لا تُرى إلّا في منظوره الخاص.

عُرِف هذا الخطاب باختياراته على المستويين المعجميّ، واللغويّ، فنقل موصوفه واستحضره، كي يسدّ به شقوق متاعب الرحلة، بصبغة خاصّة يستشعرها متلقيه ويردّها إليه، إذ تمثل آليّاته في خطابه الوصفي، فنظر إلى العالم الخارجي وفق رؤيته الخاصّة أولاً، ثمّ محدّدات الواقع ثانياً.

جاء اهتمامي بأدب الرحلات، انطلاقاً من أُطروحتي في الماجستير "رحلة ابن جبير، دراسة تركيبيّة وصفيّة" بإشراف الأستاذ الدكتور سمير استيتية، في جامعة اليرموك، ٢٠٠٦م. فوجدت في خطاب أدب الرحلات مادة وفيرة للبحث، وفي طرائقه الوصفيّة ما يوحي ببراعة الواصف ودقّته، فعمدت إلى دراسة خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، وخصصت دراستي حول خمس رحلات تُعَدّ الأشهر؛ لأستخلص منها خطاباً موحّداً شاع

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وتكرّر، وبرزت سماته العامة، وأصحابها: الهمداني، الإصطخري، ابن فضلان، المسعودي، المقدسي.

عنيت دراستي بالآليّات التعبيريّة في خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجريّ، التي يصف بها موصوفه، باعتماد الأساليب اللغويّة الأكثر تكراراً في الرحلات الخمسة المدروسة، لعرض رؤى الرحالة وتطلعاته، جرّاء تصوير المكان وأهله. استند تحليلي لخطاب الرحلات إلى الواقع الخارجيّ للموصوف، والواقع النفسي للرحالة، فربطت بينهما وفق أسس نظرية الخطاب.

وظّف خطاب أدب الرحلات اختياراته اللغوية، لإيصال ما يريد من رضا وقبول للمكان، أو استياء ورفض له، فجاءت مكرّرة في الرحلة الواحدة، وفي الرحلات المدروسة كلّها. برز التكرار سواء أكان في اللفظ أم في المعنى، واتّخذ إطاراً عامّاً يحدّد هذا الخطاب، ويصبغه بصبغة لغويّة تجعله ميدان دراسة لم تطرق من قبل بشكل مخصوص، إذ انصب جلّ اهتمام الدراسات السابقة على فائدة الرحلات من النواحي التاريخيّة، والجغرافيّة، والدينيّة، والسياسيّة، والإنسانيّة، ولم تدرس دراسات لغويّة خاصّة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي، ١٩٥٧م، وأدب الرحلة عند العرب في المشرق، علي محسن عيسى مال الله ١٩٧٨م، والرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، ١٩٨٠م، والرحلة عين الجغرافيا المبصرة، صلاح الدين الشامي ١٩٨٢م.

أمّا خطة الدراسة، فاعتمدت فيها ما اقتضته ضرورة المنهج وطبيعة الموضوع، فجاءت في ثلاثة فصول هي:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول: الرحلات في القرن الرابع الهجري.

الفصل الثاني: أبنية الخطاب في أدب الرحلات

الفصل الثالث: آليّات الخطاب في أدب الرحلات.

والله وليّ التوفيق

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الفصل الأول

الرحلات في القرن الرابع الهجري

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الرحلات في القرن الرابع الهجري

نشأ أدب الرحلة، في أشكال متعدّدة، ولأهداف مختلفة. وساهمت ظروف معينة في نشوئه وتميّزه، فظهر حصاده الفكري على مرّ العصور، وتجلّى الأمر في القرن الرابع الهجري ، لما تحقّق فيه من إنجازات هامة في هذا المجال.

وبناء عليه، سأعرض في المبحثين الآتيين أسباب نشوء أدب الرحلة، وحصاده على الصعيدين اللغوي والفكري.

المبحث الأول: دواعي الرحلة

عاش العرب في بيئة صحراوية، تحنو عليهم حيناً، وتقسو عليهم أحياناً، فتضطرهم إلى الترحال والتنقّل المستمرّ، فأوجد هذا الأمر في أنفسهم ميلاً إلى البحث الدائم بأشكاله المختلفة، كالبحث عن الكلأ، والمرعى، والأهل، واللغة، والمال، وغير ذلك. فَألِفوا الترحال واعتادوه، وأصبح بذلك استقراراً لهم ومنهج حياة.

عرف العرب إثر ذلك الطرق البرية والبحرية في مناطق متعددة، فسهّل عليهم الأمر الاشتغال بالتجارة كرحلة قريش وغيرها من القبائل في الجزيرة العربية صيفاً وشتاء إلى بلاد الشام واليمن، وكان لهذا النشاط التجاري أثره النفسي علاوة على أثره المادي، ويتجلّى هذا الأثر في مسلكين مهمين هما:

المسلك الأول: الاطلاع على ثقافات الآخرين، وعلاقاتهم الإنسانية، ووصفها، ومقارنتها، وانتقادها.

المسلك الثاني: رسم مخطّط عمراني في مخيلة المتنقّل لما شاهد في أثناء تنقّله، سواء أقصد ذلك أم لا.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ومن الطبيعي أن ينعكس الأثر النفسيّ بمسلكيه على المجتمع العربي كلّه شغفاً بنقل التأثّر بالبلدان وأهلها من جهة، والاعتداد بالثقافات الجديدة التي حصل عليها المتنقّل من جهة أخرى.

أصبح المتنقّل مُحمَّلاً بالأخبار والمعلومات الوفيرة في مجالات متعددة، منها الطريف والغريب، ومنها التاريخيّ والجغرافيّ، ومنها "المتوحّش والشاذ عن قوانين الطبيعة، فأخذ يصبح تدريجياً مدار تأمّل أعمق ومقارنة بين الشعوب"[1]. من هذا التصور بدأ التوجّه إلى الرحلات، والنظر إليها شيئاً مستقلاً له طابعه الخاص.

ظهرت إذن ملامح الرحلات بغض النظر عن أهدافها، وعَظُم شأن العربي المتنقِّل، واتصل بالعالم من حوله إثر التوسع السياسي، وانتشار العرب في مناطق بعيدة، فكان لهذا التوسّع "أثر بالغ في السياحة، واتّخاذها وسيلة للدراسة والوقوف على ما في تلك المناطق من عجائب وغرائب"[2]، ومما لا شكّ فيه أن التوسع السياسيّ تأثّر بمجيء الإسلام وانتشاره في مختلف بقاع العالم.

ظهر الفكر الإسلاميّ، وأثّر بالرحلة، فكان داعياً قوياً من دواعيها، وأسهمت الفتوحات الإسلاميّة في نتشارها مع انتشار رقعة الدولة الإسلاميّة، فخرج العرب من جزيرتهم، وطافوا بأركان العالم الوسيط في آسيا وإفريقيا، واتّسعت آفاق تنقّلاتهم، وكَثُرت مشاهداتهم، فأدّى ذلك إلى تنمية الفطرة العربية على التنقّل، وتبلّور هذا الحس متّخذاً نسقاً خاصاً، وأصبح طريقاً يُحتذى حذوه، يضيف إليه كل متّبع له معلماً حتى تكتمل صورته.

([1]) أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسة الندوات، ص ٢٩.

([2]) أدب الرحلات، أحمد أبو سعد، ص ١٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نشأت الرحلات، وتعدّدت أشكالها في ظل "الأمن والطمأنينة في ديار المسلمين، وفرض النظام في ربوعها، وإشاعة هيبة الدولة فيما وراء هذه الديار، في أنحاء واسعة من جزيرة العرب"[1]، فكان هذا أهم دعم تطلبه الرحلة، دون النظر إليها، إن كانت هادفة أم هاجسة تسيّرها نزعة ذاتية خاصة.

بناء على ما سبق، سنجمل تأثير الفكر الإسلامي في نشوء الرحلات في العوامل الآتية:

أولاً: اهتمّ الإسلام بالعلم، وحثّ على طلبه[2] ، إذْ بعدما توسعت الدولة الإسلامية بشكل سريع، وتعدّدت أقاليمها المناخية والتضاريسية، اتّجه المسلمون إثر ذلك يطلبون علوم الدين والدنيا مهما بَعُدت المسافات.

فما وجدوا أنفسهم إلا وجهاً لوجه أمام الرحلة، فلم يسجّلوا العلم في مدوناتهم وحسب، بل سجّلوا أيضاً سير طرقهم، وما واجهوه من طبيعة وطبائع، وحفظت الذاكرة المكان، وما يتعلّق به قبل العلم المبتغى.

ثانياً: اتّجه المسلمون لتأدية فريضة الحج من شتى بقاع العالم، فوصفوا طرق الحجاز ومسالكها ومخاطرها[3]، وأكثروا من وصف المقدسات الإسلاميّة، والحقيقة أن الأراضي المقدسة حظيت باهتمام الجغرافيين أكثر من غيرها [4]؛ نظراً لتعلّقها الدينيّ والروحيّ بشخص الرحالة.

([1]) الفكر الجغرافي، سيرة ومسيرة، صلاح الدين الشامي، ص ١٢٧.

([2]) انظر: أصول البحث الجغرافي، سيد أحمد، ص ٢٤. وانظر الفكر الجغرافي نشأته ومناهجه، صبري الهيتي، ص ٥٠.

([3]) انظر تطور الفكر الجغرافي، رينينه كلوزييه، تعريب عبد الرحمن حميدة، ص ٤٨.

([4]) انظر الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، عيسى علي إبراهيم، ص ٧٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ثالثاً: حثّ الإسلام على السياحة لأسباب متعددة، مثل التأمّل في المخلوقات، والاتّعاظ من آثار الأمم البائدة، والتعرّف على المظاهر الكونية المختلفة. ولم يشجّع الإسلام على السياحة فحسب، بل سهّل على المسافرين العبادات كالصوم والصلاة [1]، فجعلهم يقبلون على الأمر بيسر وسهولة.

رابعاً: أصبح للرحلة بعد نشوء الإسلام ضرورة سياسية وعسكرية، فاتّساع أطرافها وامتدادها من حدود الصين شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً أوجب على ذوي الأمر احتياجهم للرحالة، ومن اعتاد السفر، وألِف الطرق من أجل معرفة أخبار الأقاليم الخاضعة لهم على وجه السرعة؛ "لذلك عنيت الدولة بنظام البريد، فمهّدت الطرق له، وشيّدت المحطات، وأقامت على الطرق معالم تبيّن المسافات"[2]، حيث تتصدّى لنقل الرسائل، وتوصّل التعليمات بين أرجاء الدولة وخارجها.

وسعت إلى تأمين استقرار وسلامة الحياة[3]، فاتخذت الرحلات وسيلة من وسائلها في ذلك بالاطّلاع على الدول المحيطة من جهة، وبالتنقّل المتواصل بين أطراف الدولة الواحدة لدرء الخطر وإحباطه من جهة أخرى.

خامساً: أضاف الإسلام إلى قائمة الرحلات المتنوّعة ما يُسمَّى برحلة السفارة، وهي "رحلة المسؤولية والتكليف، ووضع التعليمات موضع التنفيذ أكثر من أي شيء آخر، لمصلحة

([1]) انظر أدب الرحلة، حسين نصار، ص ٤.

([2]) المصدر السابق، ص ٥.

([3]) انظر الرحلة عين الجغرافية، صلاح الدين الشامي، ص ٤٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عامة مشروعة لحساب الإسلام والمسلمين، تعمل بموجب التكليف من ولي الأمـر"[1]، لنقـل مبادئ الإسلام، وتعليم فرائضه من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها[2].

نشأ هذا الصنف من الرحلات بأوامر رجال الحكم في الدول الإسلامية في العـصور الوسطى للمفاوضة بين أقطارهم وأقطار أخرى أجنبية في مسائل تجارية أو حربية أو لإبرام معاهدات صلح[3].

سادساً: عرفت الدولة الإسلامية النظام والإدارة وتشكيل الحكومة، وكان لها مـدنيتها الخاصة، فلم تعد الصحراء هاجسها الأول، بل أمسكت بزمام الانفتاح على العالم من حولهـا، والسعي وراء كل ما هو جديد، فوظّفت الرحلة في خدمة مبتغاها. و"لأن الرحلة في البـرّ أو البحر بعيدة المدى، وكلفتها عالية، والعائد منها ثمين، فلقد تحمّلت الدولة وبعـض أصـحاب المصلحة مسؤوليات تمويل الرحلة، في مقابل تكليفها بأداء المهمّة أو المهام المنوطة بهـا"[4]، فازداد عدد الرحلات وكَثُر المرتحلون، بل ربما توجّهوا على شكل فـرق متخصـصة مـن أصحاب الخبرة.

وأخيراً مهّد الإسلام طريق الرحلة، وأمّن احتياجاته ابتداءً مـن رحـلات الفتوحـات الإسلامية، وانتهاء برحلات العصر الحديث التي سارت على نهج سابقيها، ووجدت به معينـاً لا ينضب، فكان الداعي الأول لنشوء الرحلة.

([1]) المصدر السابق، ص ١١٤.

([2]) خير مثال لهذه الرحلات رحلة ابن فضلان التي سيتم عرضها.

([3]) انظر مفهوم الرحلة من خلال كتاب محمد بيرم الخامس، محمد صالح المراكشي، ص٢٣٢ .

([4]) انظر الرحلة عين الجغرافية، صلاح الدين الشامي ، ص ٤٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أما الداعي الثاني للرحلة فيتمثل في نشوء علم الجغرافيا، والاهتمام به، فهل كانت الرحلة حسّاً فطرياً تفجّر في الإنسان بإبصار الجغرافيا، أم أن علم الجغرافيا نشأ نتيجة الحسّ الفطري الذي أيقظته الرحلة؟

نعم، يبدو أنّ الرحلة وراء نشوء علم الجغرافيا، فحقّقت هدفاً كبيراً من أهداف حركة الحياة على الأرض، فإن قَصُرت مسافاتها أو طالت جنى الإنسان ثمراتها وانتفع بها، ونقلت له ما شاء وما لم يشأ، وصوّرت له أحداثاً ربما كان من الصعب عليه تخيّلها، وجعلته يبصر الكون من جديد بعين ترى الطبيعة رؤية متفحّص، وترى الإنسانيّة رؤية ناقد، وترى التاريخ رؤية مفكر.

كانت الملامح الجغرافية من الأسس المهمة التي قام عليها أدب الرحلة،؛ لهذا وصف الرحالون المدن، والطرق، والأنهار، والبحار، والجبال، والمناخ، والطبيعة، وما إلى ذلك. في الوقت الذي نشأت فيه كتب جغرافية متخصّصة، تسير وفق منهج علمي وطريق شبه موحّد، يبعدها قليلاً عن الرحلة، ويجعلها ضمن مسلك جغرافي بحت.

رسم عالم الجغرافيا المكان وصوّره أحسن التصاوير، وظهر علم الخرائط وسيلة مساندة له في هذا الأمر، أمّا الرحالة فأعاد رسم جغرافية المكان بطابع ذاتي. فللجغرافي غايته العلمية في كشف الكون، وللرحالة غايات ذاتيّة تحكمه، تجعله جغرافياً حيناً، وأديباً حيناً، وإنساناً أحياناً كثيرة.

الإنسان الذي ولد راحلاً كما يرى" شوقي ضيف"[1] أحبّ الأرض، وأعطاها كي تعطيه، وشُغل بها وبخباياها، ليوظّف حسّه الفطري في التنقّل، وحدسه الجغرافيّ الفطريّ في انتخاب الموطن واختياره.

([1]) انظر الرحلات، شوقي ضيف، ص٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذن فرحلة العربي الأولى من أجل التعايش انبعثت من تفحّص جغرافي للمكان، وطاوعته، ومن ثمّ عرفت اختيار الموطن الأنسب[1]في بيئة الجزيرة العربية الصحراوية. في الوقت نفسه كان لعلم الجغرافيا شأن خاص في الرحلة، فاصطحبته في طرقها المختلفة براً وبحراً، وفي تعدد المناخات التي عايشها، واستأنست به، وأوكلت إليه مهمة المعاينة والرؤية الفاحصة.

انتفعت الرحلة بالجغرافيا، ووجدت المعرفة الجغرافية وراء الرحلة معيناً زاخراً تتزوّد منه[2]، فطاف الجغرافيون بالعالم الإسلامي وغيره، وقيّدوا مشاهداتهم، وما يقع تحت أبصارهم، واعتمدوا الرحلة في جمع معلوماتهم الجغرافية لحرصهم وأمانتهم، ووصفوا المسالك والممالك ميدانياً، دون الاكتفاء بالنقل والرواية عن الآخرين إلّا في مواضع قليلة، وظهرت طلائع المؤلفات الجغرافية في صدر الإسلام إثر التوسع السريع للدولة الإسلامية[3]، وتعدّد أقاليمها.

ظهر الإنتاج الشخصي في التأليف الجغرافي وتفرّعت اتجاهاته الوصفيّة والاجتماعيّة والفلكيّة والإقليميّة، "وأصبحت المعرفة الجغرافيّة في خدمة متطلبات الدولة الإسلاميّة الكبرى، عسكرياً وإدارياً واقتصادياً"[4].

وفي القرن الرابع الهجري يظهر نضوج الفكر الجغرافي، ويبدو ذلك في رحلات هذا القرن وتميّزها عن غيرها، إذ بلغ عدد الرحالة في هذا القرن ما لم يبلغه في غيره، "فأتيح

([1]) انظر المصدر السابق، ص ٢٧.

([2]) انظر الفكر الجغرافي، عيسى إبراهيم، ص ٦٤- ٦٧.

([3]) انظر أصول البحث الجغرافي، سيد أحمد سالم، ص ٢٤.

([4]) في الجغرافيا، شاكر حصباك، ص ١٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

للمسلمين أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات، والاكتشاف، والدراسات الجغرافية، وأفادت أوروبا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى"[1].

و"ابتداء من القرن الرابع الهجري تعدّدت هذه الأسفار الاستكشافية، وازداد أفق الجغرافيين الوصفيين اتساعاً، كما ازدادت معلوماتهم دقّة ووضوحاً"[2]، فاهتم الجغرافيون بأقاليم العالم الإسلامي، ووصفوها في كتبهم، وظهرت خرائط "أطلس الإسلام" عند كلّ من: البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي، وسُميّت بذلك لأنّها تغطّي أقاليم العالم الإسلامي بسلسلة من الخرائط التي تتماشى مع التقسيم الجغرافي الذي ابتدعه هؤلاء مخالفين بذلك التقسيمات السابقة، فمثّل "أطلس الإسلام" قمّة علم المصورات عند العرب[3]، وتعدّدت مناهج وصف الرحلات إثر ذلك، لاتّضاح تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية.

في هذا القرن اهتمّ الجغرافيون المسلمون بوصف ما شاهدوه، فأدخلوا تقليداً جغرافياً جديداً في الكتابة الجغرافيّة، وهو استخدام الخريطة مع المتن، لتوضيح التفصيلات الواردة فيه[4]، وتظهر هذه المرحلة في كتب المسالك والممالك لابن حوقل والبلخي والاصطخري، فهم جغرافيون وصفيّون أو رحّالة علميّون كما يرى شاكر حصباك[5]، حقّقت الرحلة لهم أشكالاً من التعامل والتعايش والاختلاط بالناس، علاوة على التفاصيل الجغرافيّة الدقيقة. ويرى علي الدفّاع أن هذه الرحلات أسفار للمعاينة الميدانيّة[6]، فهي دراسة علميّة ميدانيّة بطابع لغويّ أدبيّ.

([1]) الفكر الجغرافي، الهيتي، ص ٤٨.

([2]) أعلام الجغرافيين العرب، عبد الرحمن حميدة، ص ٧٣.

([3]) انظر المصدر السابق، ص ٥٩؛ وانظر الفكر الجغرافي، الهيتي، ص٥٩-٦٠.

([4]) انظر في الجغرافية، شاكر حصباك، ص ١١، والفكر الجغرافي، الشامي، ص ٢١٠.

([5]) انظر المصدر السابق ، ص١١.

([6]) انظر رواد، علي الدفاع، ص ٥٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"سار الجغرافيون المسلمون خطوات عظيمة، إلى حدّ أنّ مؤلفاتهم عنيت بالجانب الثقافيّ، والأمور الاجتماعيّة، ويبدو واضحاً فيها تقرير خطوط العرض والطول لأماكن عديدة، فضلاً عن تلك المادة الوفيرة في مسالك السير والطرق"[1].

مع ذلك لا يفترض أن يكون كلّ جغرافيّ رحّالة، وأن يكون كلّ رحّالة جغرافيّاً، فالاجتهاد الشخصيّ كان المحرّك الأول لكلّ من الرحلات والجغرافيا، وتعدّدت أشكاله فمن اجتهاد أديب لغويّ، واجتهاد جغرافيّ وفلكيّ، واجتهاد تاريخيّ وإنسانيّ، واجتهاد رحّالة هاوٍ. "وقد تنطوي الكتابة في الرحلة على خلط بين الحقيقة الجغرافيّة، والحدث التاريخيّ والسلوك الاجتماعيّ، وقد يتمادى الخلط في الكتابة التي تسجّل حكاية الرحلة، حتى تستغرق أحياناً في ذكر الغرائب والعجائب التي تستهوي الكاتب"[2]، ويحكمه في هذا الأمر ذوقه وميوله واهتماماته، "رغم أن هذا لا ينفي حقيقة التشابه الكبير في بعض الأمور، لأسباب سياسيّة ودينيّة واجتماعيّة يخضع لها الرحّالة"[3].

ومن فضل الرحلة أنّها حفظت جانباً عظيماً من الفكر الجغرافيّ إلى جانب ما حفظته من التاريخ والأدب[4]، بل إنّها أولت العناية بالجغرافيا على التاريخ والأدب، وساعد الرحّالة المسلمين في تقديم الجغرافيا[5].

مزجت الرحلة بين العلم والأدب، فمثل العلم بمظاهر الكون المذكورة في صفحاتها بكثرة، وبالحدث التاريخيّ والاجتماعيّ والدينيّ الذي أحاط المعلومة الجغرافيّة وساندها. أمّا

([1]) الفكر، نفيس احمد ، ص ٥١.

([2]) الرحلة عين، صلاح الدين الشامي ص ١٤٨.

([3]) فكر، صبري الهيتي، ص ٤٨.

([4]) انظر الرحلات، محمد الخضر حسين، ص ١٦، يرى أن الرحلة حفظت جانباً عظيماً من التاريخ والأدب دون أن يتطرّق إلى الجغرافيا.

([5]) انظر الجغرافيا عند العرب، البشير صفر، ص ٦٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الأدب فيبدو فيها جلياً شاء الرحّالة أم أبى، يخرج رحلته من مهاد علم الجغرافيا، وينتهج لغة الأدب الجغرافيّة، ويصف بحسّ الرحلة الفطريّ، ولا يغفل الجزئيات الدقيقة التي يسقطها على ذاته، قبل نقلها وتصويرها، فيصالح المكان مع تاريخه هو، ويقدّمه بمنظور خاص مع الحفاظ على إطاره العام.

تتجلّى أيضاً الروح الأدبيّة في مظاهر الخيال المجسّدة في الرحلة، فيطعّم أحداثه بحكاية هنا ورواية هناك، بلغة السرد والحوار[1]، وتسلسل الأحداث وحبكها، فسيشعر قبل أن يكتب، ويتأثّر قبل أن يُؤثّر، ويعايش قبل أن يصف.

يمكننا أخيراً أن نوضّح صلة الجغرافيا بأدب الرحلة في الشكل الآتي:

يأخذ الرحالة مادته الجغرافية، ويعرضها بأسلوب أدبي

(1) انظر السيمولوجيا وأدب الرحلات، لطيف زيتوني، ص٢٥٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني: حصاد الرحلة

ظهر حصاد الرحلة في القرن الرابع الهجري، واكتملت ملامحه، وتنوّعت أشكاله، فحمل القوالب التصويرية الكثيرة للزمان والمكان والإنسانيّة، مما جعل نفيس أحمد[1] يرى أنّ العهد الأصيل والمثمرّ للجغرافيا الإسلاميّة ينقضي عند انتهاء المؤلفات المصنّفة في القرن الرابع الهجريّ، ويبدو أنّه قصد الجغرافيا الإسلاميّة المعتمدة على الرحلة، فالكتابة في القرن الرابع الهجريّ اعتمدت بشكل كبير على المشاهدة الشخصيّة والحسّ، ومن ذلك عنايتها بالمسالك والطرق والمسافات وندرة الإحصاءات[2] عند الجغرافيين، إن لم نقل انعدامها.

مثل الجغرافيون العرب في هذه المرحلة مدرسة خاصة بهم، اتّسمت بطابع الأمانة العلميّة، باعتمادها الرحلة سبيلاً في توثيق معلوماتهم، فعرّفوا العالم شرقه وغربه في أقطار الدولة الإسلاميّة خاصة، ووصفوها أحسن الوصف وأدقّه، فأرسوا بذلك قواعد الجغرافيا الوصفيّة والدراسة الميدانيّة التي جاءت فيما بعد.

هذا الأمر جعل الجغرافيا تختلط بالرحلات – كما ذكرت– واستمرّ الاتصال بينهما مدة لا يُستهان بها عند معظم الجغرافيين. أمّا من انتحوا الرحلة وحسب، فكانت جغرافيتهم بشريّة أكثر منها طبيعيّة، ويبدو أن أنواع الرحلة تعدّدت في القرن الرابع الهجريّ، وتبلّورت في الأشكال التالية:

([1]) انظر فكر، نفيس أحمد، ص ٥٢.

([2]) انظر الجغرافيا و الرحلات عند العرب ، نقولا زياد ، ص١٣، نقلاً عن متز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١- رحلات اعتنت بأقطار العالم الإسلاميّ ووصفت بلدانه وجغرافيّته وأهله، ومزجت بين الجغرافيا الوصفيّة والعلوم الأخرى كالتاريخ، وعلم الإنسان، واللغة، وعلوم الدين، وما يمثلها كتابات البلخي، والاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي[١].

٢- رحلات متخصّصة في قطر واحد جغرافياً وعمرانيّاً وإنسانيّاً، كالهمدانيّ في كتابه "صفة جزيرة العرب".

٣- رحلات تأريخيّة أكثر منها جغرافيّة أو إنسانيّة، وقد عني أصحابها بالجانب التاريخيّ، وتدوين القصص والأخبار أكثر من عنايتهم بوصف المشاهدة المباشرة، وخير مثال لها المسعودي في كتابه "التنبيه والإشراف".

٤- رحلات إنسانيّة اهتمّت بوصف عادات الناس وسلوكهم، وعني أصحابها بالتحليل الدقيق لما شاهدوه، فاحتوت ملامح علم الإنسان وبذوره، ومثالها "رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة".

الرحلات إذن لها طبيعة وصفيّة تقرّبها حيناً من الجغرافيا، وتبعدها عنها أحياناً أخرى، بفرضها على منتهجها نظاماً وصفيّاً، يجعله يمرّ بعيون البشر قبل زوايا المكان، ثم ترتد الرؤية الوصفيّة لبؤرتها في مخيلته، قبل تسجيل الحدث، وكأننا أمام شبكتين بصريتين[٢]، الأولى: متمثلة بالمكان المرتحل إليه وأهله وزمانه، والثانية: متمثلة بالرحّالة وما علق به من المكان والأهل والزمان.

---

(١) سنفصّل الحديث عن أصحاب هذه الرحلات في الصفحات القادمة.

(٢) انظر الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، عبد الرحمن مُودّن، ص٢٧١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يمكن توضيح المسألة بالشكل الآتي:

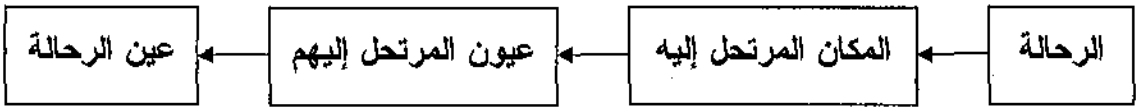

يتمثل حصاد الرحلة في نهاية الأمر بعين الرحالة نفسه، ونقل سطوة المكان أمام سطوة مخيلته، حتى يتضاءل تاريخ المكان في معظم الأحيان أمام تاريخه الشخصيّ الذي يحرّكه، ويقوده في وصفه لما يرى، "فالرحالة لا يقدّم المكان الجغرافيّ، بل يقدّم المكان من خلال منظوره الخاص"[1]، ورغم أنّ الرحالة يصف أمكنة ومسالك، إلا أنّه ينتهج لغة خطاب من نوع ما بينه وبين المكان، قد لا يحسّ بها إلّا من التمس حصاد الرحلة عن قرب، وعايش اللفظ.

وسنجمل حصاد الرحلة في النقاط الآتية:

أولاً: اشتملت الرحلات على الوصف المكانيّ، وألقت الضوء على جغرافيّته، فأكثرت من وصف التربة، والمياه، والطقس، والتضاريس.

ثانياً: لم تهمل الرحلات أهمية المكان بأحداثه التاريخية ومذاهبه الدينيّة، فاستشعرت جانب الأمان بالتاريخ والدين، وأرست ترحالها في دعائمهما، وتمسّكت بنشرهما في ثنايا الرحلة.

ثالثاً: حرّك الحنين إلى الوطن أحاسيس الرحّالة، فجعله يصف ما يرى، ويقارن- دون أن يعي- المرئي بما ألِفه واعتاده، ويبدو ذلك عند حديثه عن الطقوس، والعادات، والسلوك، فكثيراً ما يذكر استياءه، ويصف شعوره، وينصّب نفسه حكماً على ما يرى.

([1]) المصدر السابق، ص ٦٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

رابعاً: أكثر الرحالة من أساليب التفضيل المختلفة، فكثرة التطواف جعلته يفاضل بين ما يرى من أمكنة، ومعابر، وطرق، ومعالم. فكرّر الألفاظ التفضيليّة نفسها كثيراً، وامتلأت الرحلات بألفاظ "أكبر وأجمل، وأوسع، وأشدّ، وأصفى..... الخ".

خامساً: رافق هاجس الخوف الرحالة في تجواله، فإن اعتاد الترحال ووجد مبتغاه فيه إلا أنّه لم يسلم من مخاطر الطرق ومصاعبها، فجعلته تجربة السفر يكثر من ذكر الحصانة والمناعة، وينظر إلى المعالم نظرة متفحّص، ويبحث عن الأمن والاستقرار، فاهتمّ بوصف البلدان إن كانت مأهولة ومسوّرة ومحصنة وما إلى ذلك.

سادساً: أدّت الرحلة أثرها في الكشف الاجتماعيّ، ففارنت بين النظم الاجتماعيّة لدى البشر، "الأمر الذي جعل المؤرّخون يرون أن تلك المعرفة قد وضعت الجذور الأولى لمادة الإثنوجرافيا"[1]، فاعتناؤها بالنظم الاجتماعيّة، أو علم الإنسان، أو علم الجغرافيا البشريّة أكّد حقيقة مؤدّاها أن الرحلة كشفت العالم والإنسان، فوقفت على أحوال كثير من الأمم والشعوب، وقد حاول الرحالة في بعض الأحيان تحليل وتفسير ذلك وربطه بالبناء الاجتماعيّ، دون أهداف علميّة محدّدة[2].

وبعد هذا العرض المجمل لحصاد الرحلة في القرن الرابع الهجري، سأذكر أصحاب الرحلات الخمس التي قامت عليها هذه الدراسة:

([1]) أدب الرحلات، حسين فهيم، ص ٢٢.

الإثنوجرافيا: كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات، والقيم، والأدوات، والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة خلال فترة زمنية محددة، المصدر نفسه، ص ٤٩.

([2]) انظر إسهامات بعض الرحالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة، أحمد الربابعة، ص٣٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١- الهَمْداني (٢٨٠- ٣٣٤هـ)

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني، سُمّي ابن الحائك[١]، ولسان اليمن، ويُسمّيه ياقوت في معجم البلدان (ابن الدمينة) نسبة إلى جدّه ابن أبي الدمين[٢].

أقام في مكة مدة، اتجه فيها لرواية الحديث وكتابة الفقه، ثم عاد إلى اليمن، فنزل صعدة (قاعدة أئمة الزيدية)، ولم تطُل إقامته بها، إذ دخل في نزاع مع شعرائها أدخله السجن، ثم توفي في سجن صنعاء ضحية مكائد خصومه[٣].

اشتهر الهمْداني بعلوم كثيرة منها النحو والأدب والتاريخ والجغرافيا وعلوم الأرض، وتفنّن في الأدب الشعبي القديم في جنوب جزيرة العرب، ويرى كراتشكوفسكي أن مصنّفه (الإكليل) خير دليل على سعة معارفه، ويعتبر اشبرنجر رحلته "صفة جزيرة العرب" إلى جانب كتاب المقدسي أقيم ما أنتجه العرب في الجغرافيا[٤].

احتوت رحلته معلومات عن الظواهر الطبيعية للجزيرة العربية، ولسكانها، ولمحصولاتها الحيوانية والنباتية والمعدنية، ولمعابرها البريّة والبحريّة، وقدّم الكاتب معلومات أصيلة عن اليمن لم يسبقه إليها أحد[٥]، فلم يستند إلى النقل من السلف، بل كان يجوب أركان الجزيرة العربية، يبحث فيها، ويدوّن ما يراه من أسرارها.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشكوفسكي، (١/١٧٠).

(٢) يقال إن جده كان شاعراً فسُمّي حائكاً لصوغه الشعر، ويبدو أن خصومه أطلقوا عليه هذا الاسم، انظر أعلام، حميدة، ص ٢٩١- ٢٩٢.

(٣) يورد حمد الجاسر في المقدمة على أنه توفي بعد هذا التاريخ انظر ص٣١.

(٤) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي ، ١/ ١٧٠.

(٥) انظر المصدر السابق، ١/١٧٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لم يكن الهمداني رحّالة وحسب، ولا جغرافياً وحسب، بل هو متعدّد الثقافة والمعرفة، له إطلاع واسع بالأنساب والتاريخ والآثار، علاوة على تملّكه ناصية المادة الأدبيّة[1] بدقة وصفه وجمال تعبيره.

٢- ابن فضلان (٣٠٩هـ)

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، كان مولى لأحد العباسيين، لا يعلم المؤرّخون شيئاً عن حياته، ولكن مما لا شكّ فيه أنّه ارتحل سنة ٣٠٩هـ إلى بلاد البلغار، والحقّ أنّ لهذه الرحلة شأناً عظيماً؛ لأن ابن فضلان كان رسولاً للخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠هـ) في بعثة إلى ملك البلغار، بعد أن أسلم، وكتب إلى الخليفة بذلك كتاباً يسأله أن يرسل إليه من يفقّهه في الدين [2]، فأرسل الخليفة أحمد بن فضلان رئيس بعثة إلى ملك الصقالبة.

بعد عودته إلى بغداد وضع كتاباً في وصف رحلته إلى القوم، وألمّ إلماماً دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم ومعتقداتهم، ولم يصف شعب البلغار وحده، بل وصف أيضاً الخزر والروس.

تُعَدُّ رحلة ابن فضلان أثراً طريفاً من آثار عصره، فهي تُقدِّم صورة حية للظروف السياسيّة في العالم الإسلاميّ، والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المجاورة لها[3]، ويعدّها شوقي ضيف رمزاً لرحلات العرب في أوروبا[4].

---

(1) انظر المصدر السابق، ١٧٢/١.

(2) انظر رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ص٣٢-٣٣.

(3) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ١٨٦/١.

(4) انظر رحلات، شوقي ضيف، ص٥٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وُصِف ابن فضلان بالذكاء والحنكة السياسية[١]، وعُرِف بأسلوبه القصصيّ السلس الذي لا يخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعابة التي ربما لم تكن مقصودة[٢].

طُبعت الرحلة مرتين[٣] بنقص ملحوظ فيها، ويزعم سليمان المدني أنّه وجد تكملة الرحلة، ويؤكّد ذلك في كتابه "أكلة لحوم البشر، عن مخطوطة لابن فضلان"، فيخلط ما حققه سامي الدهّان، مع ما وجده ظناً منه أنّه بذلك سدّ الثغرات في النسختين[٤]، ولكن ما جاء به ليس سوى رواية لروائي أمريكيّ، اعتاد مزج التاريخ بالخيال والأسطورة، لجذب القرّاء إليه، ولا يخفى على قارئ كتاب المدني أنّه يحوي فكراً ولغة لا تمت لأدب الرحلات بصلة.

وقع حيدر غيبة في الخطأ نفسه عندما أصدر كتابه سنة ١٩٩٤م ، بناء على رواية مايكل كرايتون (Eaters of the Dead) [٥] ، فظن أنّها صورة للمخطوطة الضائعة، ويبدو أن رحلة ابن فضلان في طبعة كرايتون المزعومة خلت من الفقرات الخاصة بزيارة بلاد الصقالبة التي هي الهدف الأساسي من مهمّة ابن فضلان، وكذلك الجزء الخاص بزيارة بلاد الخزر، وكلاهما موجود في الطبعة العربية (طبعة مشهد) التي حقّقها الدهان، وفي الوقت ذاته خلت الطبعة العربية من زيارة ابن فضلان لبلاد الشمال المعروفة باسم (اسكندنافيا)، ووجدت عند كرايتون بمغامراتها المثيرة ومعلوماتها الوفيرة، وهذا الجزء يشكّل نحو ثلاثة أرباع حجم الرحلة الأساسي.

---

(١) انظر رواد، علي الدفاع،٨٧ .

(٢) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، (١/ ١٨٦)، ويبدو أن علي مال الله في كتابه "أدب الرحلات" التبس عليه الأمر، واعتقد أن المقصود (الدعاية) فيعلق قائلاً: "فلم أجد هذا الضرب في الدعاية التي أشار إليها الكاتب سواء أكانت مقصودة أو غير مقصودة" أدب الرحلات، علي مال الله، ص ١٠٥.

(٣) طُبعت المرة الأولى في دمشق سنة (١٩٥٩م)، وأعيدت طباعتها المرة الثانية سنة ١٩٧٢م.

(٤) انظر أكلة لحوم البشر، سليمان المدني، ص٢٣.

(٥) انظر مجلة ديوان العرب، www.DiwanalArab .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

هذا الأمر أوقع حيدر غيبة بخطأ اعتبار الرواية الخيالية لكرايتون مخطوطة جديدة عثر عليها لابن فضلان، إذ التقط كرايتون شيئاً من التاريخ، ونسج منه خيالاً واسعاً، ويبدو أنّه يلجأ إلى ذلك كثيراً في كتاباته.

٣- الإصطخري (٣٤٦هـ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، يعرف في بعض الأحيان باسم الكرخي، ترجع تسميته إلى إصطخر بفارس[١].

زار معظم البلاد الإسلامية، فألّف كتابه "المسالك والممالك" بناءً على مشاهداته، تميّز كتابه عن غيره بكثرة الخرائط التي استخدمها كوسائل إيضاح[٢]، فسُمّي "دليل الرحالة الجغرافي"[٣].

درس الأراضي وأبعادها ومراكز العمران فيها، ووصف المسطّحات المائيّة في العالم والحدود والمساحات، فكان أول من قسّم الأرض عشرين جزءاً[٤] منفصلاً بذلك عن بطليموس.

يقودنا الإصطخري إلى علمين آخرين من أعلام الرحلة في القرن الرابع الهجري هما البلخي (ت ٣٠٧هـ)، وابن حوقل (ت ٣٣٦هـ)، إذ يُعدُّ الأول "رائد مدرسة البلدانيين الخرائطيين" المساهمين في أطلس الإسلام، وقد أرسى بذلك أساس سلسلة جديدة من المؤلفات الجغرافيّة المشتملة على خرائط"[٥].

---

(١) انظر رواد، علي الدفاع، ص ١٠٣.

(٢) انظر دراسات في الكشوف الجغرافية والتطور الفكر الجغرافي، فتحي محمد أبو عيانة و آخرون، ص ٢٩٠.

(٣) الجغرافيا، نقولا، ص ٣٢.

(٤) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ص ١٩٨.

(٥) فكر، هيتي، ص ٦١، سبق ذكره "أطلس الإسلام".

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ألّف كتابه "المسالك والممالك" الذي تضمّن الأشكال أو صور الأقاليم، ولكن هذا الكتاب المهمّ لم يصل إلينا، إلّا أنّ مضمونه وصل برواية الإصطخري[1]، ويبدو ذلك من الاسم المشترك للرحلتين.

يقول كراتشكوفسكي "وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أنّ بعض المخطوطات التي نُسِبت في فهارس المخطوطات أو حتى في الأصل إلى البلخي إنما تمثل في الحقيقة مسوّدات لمصنف الإصطخري أو ابن حوقل"[2]، فربما كانت رحلة البلخي وهمية أو أنّها حقيقيّة تناولتها صفحات الضياع إلّا أنّ المعلومات وافية عن صاحبها[3].

أمّا ابن حوقل، فيُعتقد أنّه راجع للإصطخري نصوصاً وخرائط بناءً على طلب الإصطخري نفسه، لثقته بخبرته الكبيرة التي اكتسبها في رحلاته العديدة، عندما لقيه سنة (٣٤٠هـ)، ثم طلب منه الإصطخري أن يعيد النظر في كتابه كلّه، ففعل ابن حوقل ذلك[4].

إذن كتاب ابن حوقل "المسالك والممالك" أو "صورة الأرض" في حقيقته مستمدّ من الإصطخري، إلّا في بعض الإضافات القليلة أو التصويبات في مجال رسم الخرائط، ولا تختلف مقدمة ابن حوقل كثيراً عمّا ذكره الإصطخري في مستهلّ كتابه، إلّا في بسط القول وإيضاحه بصورة أكبر"[5].

([1]) انظر فكر، الشامي، ص ٢٤٢، والجغرافيا، نقولا، ص ٢١.

([2]) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ص ١/١٩٩.

([3]) انظر المصدر السابق، ١/ ١٩٩- ٢٠٠.

([4]) انظر فكر، الشامي، ص ٢٤٤، ودراسات فتحي، ٢٨٩.

([5]) فكر، هيتي، ص ٦٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يقول عبد الرحمن حميدة: "نستخلص من مقارنة كتاب ابن حوقل بكتاب الإصطخري أن الأول يدين للثاني بأكثر مما يعترف به، فقد أخذ عنه مخطّطه فضلاً عن فصول برمّتها"[١]، ويرى علي مال الله الرأي نفسه[٢].

٤- المسعودي (٢٨٧هـ- ٣٤٦هـ)

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرّخ، من ذريّة الصحابي عبدالله بن مسعود، أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن الرابع الهجري كما يراه كراتشكوفسكي، فهو مرتكز يُرجع إليه في تحقيق الأخبار، ومراجعتها"[٣].

زار معظم أجزاء الدولة الإسلامية، فغطّت رحلاته جميع الأقاليم، وقد ارتحل وهو في ريعان شبابه رحلات طويلة واسعة، واستمر ذلك نحو خمس وعشرين سنة، فسجّل في مؤلفاته ما شاهد وما سمع وما قرأ[٤]، فخرجت مؤلّفاته كاملة في شكل دائرة معارف في معظم فروع المعرفة[٥]، "فلم يكن رحّالة يحبّ الاستطلاع فحسب كالمقدسي بل كان أيضاً عالماً"[٦].

أمّا مصنّفه "التنبيه والإشراف"، فيظهر فيه مادة جغرافيّة بالمعنى الصحيح، بالقياس إلى كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي يُعدّ كتاباً تاريخيّاً بالدرجة الأولى، ولم يغفل عن التاريخ في "التنبيه والإشراف"، لكنّه جمع فيه بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمران، فهو "يتضمّن معظم ضروب العلم في عصره، ويمتاز على غيره من الكتب العربية بكثرة ما

---

(١) أعلام، حميدة، ص ٢١١.

(٢) انظر أدب الرحلات عند المشرق : نشأته و تطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، علي محسن عيسى مال الله ، ص ١٢١.

(٣) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ١/ ١٧٧.

(٤) أنظر أعلام، حميدة، ص ٣٠٩.

(٥) انظر رواد، علي الدفاع، ص ١١٤.

(٦) انظر أعلام، حميدة، ص ٣١٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فيه من أخبار الأمم التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي في العصور الوسطى، وبندرة هذه الأخبار"[1]، فجاء كتابه إثر ذلك بعيداً نوعاً ما عن التنظيم، لاشتماله على معارف كثيرة.

احتوت الرحلة مادة ضخمة جمعها في فترة زمنيّة قصيرة، ويبدو أنه لم ينتقِ ممّا جمع، بل أورد كلّ خبر سمعه، وكلّ حادثٍ شاهده، هذا ما جعله مؤرّخاً أكثر منه رحالة يميل إلى اللغة السلسة المألوفة. فيرى كراتشكوفسكي أسلوبه "وإن كان لا يرقى إلى مصاف الأدباء المتخصّصين غير أنّه يمتاز بمسحة أدبية جيدة"[2].

٥- المقدسي (٣٣٥هـ- ٣٩٠هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر من بيت المقدس بفلسطين وإليه يُنسب[3]، اعتمد في كتاباته على رحلاته الواسعة التي غطّت جميع أقاليم العالم الإسلامي باستثناء الأندلس والسند[4]، عُرف عنه حب الترحال، والتنقّل، والبحث عن المعرفة.

"أعاد المقدسي تقسيم العالم إلى أربعة عشر إقليماً، وأفرد لكل إقليم خارطة، فهو إذن يخالف تقسيمات سابقيه عن قصد، إذ لا يتبع التقسيم إلى سبعة أقاليم أو عشرين إقليماً، ويختار لتقسيماته الجديدة عدداً من المبرّرات والأسس الجغرافية عن طبيعة بشريّة"[5]، وهذا يدلّ على ثقته الكبيرة بنفسه، ومحاولته إبرازها وتميّزها.

وتأكيداً لما سبق نجده في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" يذكر غير مرة فضل هذا الكتاب على كتب الآخرين، ويفتخر ويعتدّ به، ويبدو ذلك أيضاً من عنوان كتابه.

---

(1) فكر، هيتي، ص ٥١.
(2) تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ١/١٨٥.
(3) انظر الرحلات، شوقي، ص ١٥.
(4) انظر دراسات فتحي، ص ٢٩٥.
(5) فكر، هيتي، ص ٦٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يقف المقدسي موقف الناقد أحياناً من السابقين له في مجاله[1]، وهذا الأمر لا يقلّل من شأن رحلته، إذ تختلط فيها الجغرافيا بالأخبار، والعمران، وأحوال الناس.

جاء كتابه منظّماً مبوّباً، له طابع علميّ دقيق[2]، يرسم به الخرائط ويحدّد الطرق، ويصوّر الأقاليم بمنهجيّة واضحة؛ لذا حقّق شهرة عظيمة، إذ يُعدّ مصدراً ضرورياً لكلّ باحث في علم الجغرافيا بوجه عام ومفهوم الأقاليم بوجه خاص، علاوة على استفاضته لنواحي الحياة الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والفكريّة بدقة وعناية بالغتين[3].

كانت الأسفار هوايته، والرحلات سبيله، فلم يبخل بوقت أو جهد أو مال من أجل تحقيق غايته، فيقال إنّه أنفق عشرة آلاف درهم في ذلك[4]، ممّا جعل عبد الرحمن حميدة يرى أنّه يعمد في رحلاته إلى التنكّر وتغيير اسمه، والدخول في الطوائف المختلفة، كي تسنح له الفرصة دراسة بيئاتها، والوقوف على عاداتها وأحوالها[5]، لشدة ولعه بالرحلات، وتعلقه بها.

يُعتبَر المقدسي خاتمة الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري، وهو في رأي المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصورهم[6]، ويذكر بعض النقاد أن كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجريّ كانت الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان، فاعتبر آدم متز كتابه ذروة ما وصلته كتب الجغرافية العربية من تقدم في وصف البلدان [7].

---

(1) انظر كراتشكوفسكي، تاريخ، ص ٢١٠.

(2) انظر الرحلات، شوقي، ص ١٥- ١٦.

(3) انظر رواد، علي الدفاع، ص ١٢٥- ١٢٦.

(4) انظر أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، محمد رشيد الفيل، ص ١٥.

(5) أنظر أعلام، حميدة، ص ٢٥٥.

(6) انظر رحلات، شوقي، ص ١٥.

(7) انظر في الجغرافية العربي، شاكر حصباك، ص ٣٧٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الفصل الثاني

أبنية الخطاب في أدب الرحلات

أبنية الخطاب في أدب الرحلات

أنشأ أدب الرحلات خطاباً خاصّاً يُعَدّ موروثاً تاريخياً، ونتاج الاستعمال الاجتماعي الطويل المدى. ويُظهِر هذا الخطاب طابعاً نفسياً عامّاً، تشير آليات خطابه إليه، ويبدو سمة بارزة لأدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، دون تخصيص لرحالة معيّن. ويُظهِر أطراً لغوية محدّدة، تتميّز بشقيّها: التركيبيّ والدلاليّ، في تعبيريّة لها نسقها الخاص.

هذا النسق هو مبتغى علماء الخطاب، وهدفهم الأول، وعلى الرغم من أنّ مفاهيم الخطاب ومصطلحاته قد تعدّدت عندهم، فإنّهم لم يختلفوا في أنّه يبحث في نظام نسقيّ معيّن يكشف عن بنية خاصّة للنص[1].

عرّف هاريس – رائد تحليل الخطاب– الخطاب بأنه "ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجيّة التوزيعيّة[2]. فللخطاب نظام خاص، يترجمه منهج منتجه، ويسعى محللو اللغة إلى كشف هذا النظام، لإيضاح رسالته، وبيان أساليبها اللغوية.

سعى علماء الخطاب إلى" وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصّيّة بمستوياتها المختلفة، وشرح الظواهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة"[3]، فالعمليّة التواصليّة لابد أن يتحقّق فيها وجود العناصر الآتية:

١- **المرسل:** وهو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج الخطاب.

٢- **المتلقي:** وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقّى الخطاب.

([1]) انظر تحول الخطاب النثري في عهد النهضة، أحمد ياسين، ص ١٤.

([2]) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص ١٧.

* قصد علماء الخطاب بالمتتالية مجموعة الجمل المترابطة فيما بينها لتكون نصوصاً متماسكة.

([3]) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص ٢٤٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣- **الموضوع:** وهو مضمون الخطاب الذي يريد المرسل إيصاله للمتلقي والهدف منه.

٤- **القناة:** وهو وسيلة وصول الخطاب.

٥- **المقام:** وهو زمان ومكان الخطاب، ومراعاة حال المتلقي[١].

لكلّ أسلوب من أساليب الخطاب سياقات تؤدّي وظائف محدّدة، تساعد على تأويل الخطاب وفكّ رموزه، وتميّز بين خطاب وآخر، فتقدّم لمحلّل الخطاب مفتاح تبويب النصوص وتصنيفها، ليعبر قنواتها ويحلّل رسائلها.

تتحكّم عمليّة التواصل بالتأليف بين الجمل والسياقات التي ترد فيها، والكشف عن الروابط الداخليّة في النص[٢]، والروابط المقاميّة خارج النص، لتتجاوز النظام إلى كيفيات الاستخدام، ولتنطلق من الجملة إلى الفقرة إلى النص متكاملاً، فإذا تجاوزت حدود الجملة، فإنّها لا تهملها، بل تجعلها بؤرتها التي تنطلق منها في تحليل الخطاب.

بناء عليه، يعتمد تحليل الخطاب إلى وحداته الأساسية على مجموعة من الأبنية التي تُصنّف وفق مستويات ثلاث هي:

١- **البنية العليا:** ويقصد بها نوع الخطاب والهيكل العام له[٣]، أي جنسه الأدبي وإطاره الشكليّ الخاص، فالخطبة مثلاً تشمل مقدمة، وعرضاً، وخاتمة. وهذا وصف شكليّ لها. فالنصوص يستدعيها واقع معين أو وجهة نظر معينة من منتجها، بيد أنّها تدور في فلك معرفيّ محددٍ، وإن اختلفت أشكالها.

---

(١) انظر تحليل الخطاب، بروان ويول، ص ٤٠/٤٨.

(٢) انظر علم لغة النص، سعيد بحيري، ص ١٠٢- ١٠٥.

(٣) انظر الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، خليل بن ياسر البطاشي، ص ١١٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢- **البنية الكبرى:** وهي تُعدّ تمثيلاً تجريديّاً للدلالة الشاملة للنص، فمتتاليات الجمل التي تمتلك أبنية كبرى هي وحدها التي تُسمّى من الوجهة النظرية نصوصاً[١]؛ لأنها تحدّد الموضوعات والقضايا التي يتناولها الخطاب، وسمّى جريماس البنية الكبرى بـ "البنية العميقة الدلاليّة والمنطقيّة"[٢] ويرى فان دايك (van daik) أنّها ذات طبيعة دلاليّة، كما أنّها مشروطة بمدى التماسك الكليّ للنص، لذلك فهي خاصّة بمضمون النص، بينما الأبنية العليا خاصّة بشكل النص[٣].

يكوّن النص أبنية كبرى متضامّاً بعضها إلى البعض[٤]، وقد تكون بنية كبرى واحدة وفقاً لمجموعة القضايا التي يناقشها، ويرجع الأمر في ذلك إلى ثقافة المحلّل، أو المتلقيّ مع اعتماد القرائن الواضحة التي تدلّ على القضايا الأكثر جوهريّة في مضمون النص من غيرها.

٣- **البنية الصغرى:** وهي الوحدات النصيّة المترابطة بعلاقات نحوية، فهي أبنية المتتاليات والأجزاء[٥]؛ أي الجمل المتجاورة. "وتصبح الجمل المتتالية متماسكة دلاليّاً عندما تقبل كل جملة فيها التفسير والتأويل في خط داخلي، يُعتبر امتداداً بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات الماثلة في المتتالية"[٦]. والنظر إلى الجملة الواحدة في المتتالية يُعدّ تفسيراً نسبيّاً للنصّ بتفسير بعض أجزائه التي تدلّ على محتواه.

---

(١) بلاغة الخطاب، صلاح فضل، ص ٢٥٥.

(٢) علم لغة النص، سعيد بحيري، ص ١٢٤.

(٣) انظر المصدر السابق، ص١٣٠.

(٤) انظر بلاغة الخطاب، صلاح فضل، ص ٢٥٦.

(٥) انظر المصدر السابق، ص ٢٥٥.

(٦) علم لغة النص، سعيد بحيري، ص ١٢٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتتضافر الأبنية السابقة في عمليات الاتّصال، لتحدث إبداعات لغوية متباينة. وتكمن الوظيفة المرجوّة منها في تماسك الخطاب وترابطه، وتسهيل عمليتي الفهم والتفسير.

سنتحدث عن أبنية خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري بالنظر إلى البنيتين: الصغرى والكبرى. أمّا البنية العليا فإنها تكشف قالباً عاماً لنصوص كثيرة تندرج ضمنه، وتنحّي السمات غير المشتركة بينها من الدراسة. وإن تشابه خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري في بعض الأمور، فإنّه يبقى رهينة ميول منتجه وذوقه اللغوي، بحكم تعدّد أسباب الرحلة، وتنوّع المرتحلين، وتغاير أشكال اللغة، فمن العسير تخطيط طريق خطابيّ مشترك، في حين أنّنا نستطيع استخلاص أبنية عامة مشتركة لها اتصال بالقولبة والمضمون. فلو نظرنا مثلاً إلى الشعر الجاهلي لوجدنا أن بنيته العليا تتمثل بالمقدمة الطللية، وما فيها من غزل وعاطفة، ثم وصف الرحلة والراحلة، ثم موضوع القصيدة. أما في أدب الرحلات فنرى أن الرحالة أياً كان هدفه من الرحلة لا يرى إلا الوصف، بأي قالب لغوي كان، فهو يصف حتى الهواء والتراب، وكأن الوصف تشرّب لغته لدرجة جعلته لا يعي أية قولبة غيره.

تختلط المعارف المختلفة لتكون حصيلة هذا الخطاب بينما تطغى ثقافة الرحالة، ويتحكم بناصية لغته كما يشاء. فهو مرة تاريخي وأخرى جغرافي، وكثيراً من المرّات فقيه ومحدّث وحكيم، يمزج القصة بالحدث، ويروي الخيال ملتحماً مع الحقيقة، وتختلف إثر ذلك الهيكليّة العامة لهذا الأدب.

إنّ الأبنية الكبرى إجابة حول تساؤلنا عن موضوع الخطاب وماهيّته، إذ تبيّن مجموع القضايا التي يناقشها ويعالجها. ولو نظرنا إلى الرحلات في القرن الرابع الهجري لوجدنا أنّها لم تعالج إلا ثلاث قضايا ألا وهي وصف الطبيعة، ووصف الحضارة، ووصف

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الإنسان. إذ تشير أبنيتها الصغرى إلى هذه القضايا ، وفق تواتٍ نسقيٍّ خاص يكوّن نصوصها، فتشكّل تلك القضايا دلالة شاملة لأدب الرحلات، لا تُعدّ تمثيلا له في هذا القرن فحسب، بل تصبغه بصبغة دلاليّة عامة.

تعتمد عملية تحديد الأبنية الكبرى لنصّ ما على مجموعة من العمليات الإدراكيّة وهي: الحذف والاختيار والتعميم، والتركيب[1]، فهي مفاهيم مجرّدة، تبيّن كليّة الخطاب ووحدته، كما تعدّ افتراضا يحتاج إلى وسيلة توضّحه، وتجعله مقبولا، لذلك يسلك القارئ أو المحلّل الاختزال لمعرفة البنية الكليّة؛ أي يلخّص ما يريد المرسل قوله، ويحذف، ويختار، ليصل إلى موضوع الخطاب، فتختزل المعلومات الواردة فيه. ولو طبقّنا الأمر على خطاب أدب الرحلات، لما وجدنا إلا الوصف، هذا الوصف نواته الأبنية الصغرى المتسلسلة جنباً إلى جنب؛ كي تكوّن خطاباً متماسكاً كما يرى علماء الخطاب.

إذن فالبنيتان الكبرى والصغرى تتشاكلان في خطاب أدب الرحلات؛ من أجل وصف الطبيعة، والحضارة، والإنسان، وسيتضح في المباحث الآتية بيان ذلك، كما يشير الشكل الآتي:

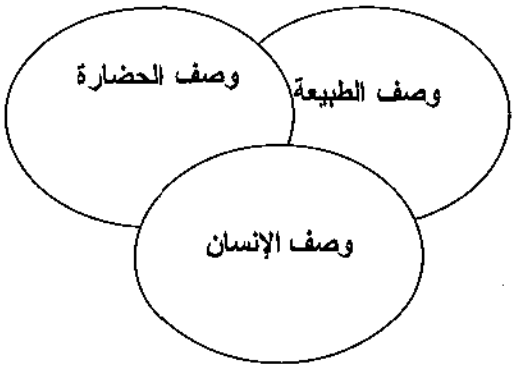

خطاب أدب الرحلات

([1]) انظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص ٤٤- ٤٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأول: أبنية وصف الطبيعة

شغلت الطبيعة الرحّالة، وكانت هدفه الأوّل في أثناء تنقّلاته، فأسقط عليها إحساس المغترب؛ ليألف المكان ويعتاده، لكنّه لم يجد نفسه بين خباياها إلا واصفاً يقارن بين الطبيعة المتغيّرة من بلد إلى آخر، وبين طبيعة المنشأ.

اهتمّ بالمياه والبحار والآبار، وذكر التربة وخيراتها بإسهاب، ولم تغفل نظرته الجغرافية عن وصف المناخ والهواء، فبدت أبنية الوصف مقولبة مكرّرة، ضمن إطار حدّده الرحّالة لنفسه والتزم به، ويظهر هذا الأمر في اعتماد الأنماط التالية:

١- الوصف بالاسم.

٢- الوصف بالفعل.

٣- الوصف بالأداة.

يراوح الرحالة بين الأنماط، للحديث عن طبيعة المكان المرتحل إليه، ووصفه، فيلجأ حيناً إلى الوصف بالفعل، لدلالة معينة يريدها، وحيناً آخر إلى الوصف بالاسم، لمبتغى وهدف يراه، ويعمد إلى الأدوات، فيحمّلها ما يريد أحياناً كثيرة، إذ تبدو الأوصاف في تراكيب مقولبة معيارية التزم بها الرحالة، وسار على دربه من زامنه، أو جاء بعده. ولا أزعم أنّ هذه القولبة ابتدأت في القرن الرابع الهجري وتخصّصت به، بل هي امتداد لما سبق، أخذت معالمها تتضح، لما تأصّل من أدب الرحلات، وبرزت فيها نزعة التنقّل الأولى، فعاينت الطبيعة ونقلتها، بعين الرحالة المبصرة التي تلتقط المكان وتصوّره، قبل أن يلتقطها.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

سأصنّف الآن التراكيب الأكثر شيوعاً في الرحلات المدروسة وفقاً لموضوعها.

١: وصف المياه

وصف أدب الرحلات المياه بأشكالها المختلفة من آبار وأنهار وأعين، وصوّرها بتراكيب لغوية عديدة، فكانت مرافقة له في كلّ مكان يرتحل إليه، نظراً لتصويرها طبيعة المكان، ومصادره الطبيعية سواء أكان معتمداً على نفسه، أم على غيره في ذلك.

جاء الوصف بالاسم، وبالفعل، وبالأداة، كما يتضح فيما يأتي:

١:١ الوصف بالاسم

أكثر خطاب أدب الرحلات من الوصف الاسميّ لمصادر المياه، وذلك لإثبات أهمية وجودها بالنسبة للرحالة المتنقّل من مكان إلى آخر، وحاجته الشديدة لها، لذلك لم يهمّه الحدث كثيراً مقارنة مع أهميّة وجود المصدر نفسه، وفي استخدام الأداة تدعيم هذا الوجود أيضاً.

وفي الجداول الآتية يبدو تصنيف الأوصاف:

الاسم	التركيب
١:١:١ (كثير)	كثيرة الآبار م[*] ١٠١
	كثيرة الأنهار م ٦، ٢٧٧، ٢٤٤
	كثرة الأعين م ٢١٨
	كثرة أنهارها م ٢٦٣
	مياه أملاح كثيرة هـ ٢٩٣
	فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة ص ٢٣

(*) اعتمدت الرموز الآتية للإشارة إلى الرحالة:

م: مقدسي.

هـ: همداني.

ع: مسعودي.

ص: إصطخري.

ف: ابن فضلان.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

	كثيرة المياه م ٢١٥، ٣٢٢ ، هـ ٢٩٠
	كثير الغيول والمآجل والمسايل [1]هـ ١٣٦
	وادٍ كثير الماء والمطاحن هـ ٢٢٥
	كثير الماء هـ ٢٨٩
	مياه كثيرة ص ١٥٣
١:١: ٢ (قليل)	كثير من مياه تهامة أملاح هـ ٣٥٦
	وهي قليلة الأنهار جداً ص ١٠٧
	ماء جارٍ قليل ص ١٥٢
	وهو نهر قليل العرض ف ١٦٨
١:١: ٣ (غزير)	غزير المياه م ٢٧٦، م ٣٢٦
	غزير الأنهار م ٢٩٩، ٢٥٤، ٢١٥
	غزيرة الماء م ١٠٠
	قناة غزيرة م١٠٠
	مياه غزيرة م ١٠١
	ماء غزير م ٢٩٨، ٢٤٨، ٢٥٢، ٣٩٠
	غزير المياه م ٢٥٨، ٢٦٥
	عيون غزيرة م ٣٥٨
	غزيرة المياه رحبة م ١٦٤
	الماء بها غزير م ١٠٠
١:١: ٤ (واسع/ ضيق) (خفيف/ ثقيل)	فتكون منها العيون الغزيرة م ٤٢
	واسعة المياه م ٢٤٤
	ضيقة المياه م ٢٥٨
	ماء خفيف م٢٥٠
	خفيفة الماء م ١٦٥، ٢٦٨
	خفيف الماء م ١٦٢
	لا آبارهم بالخفيفة م ٣٥٦
	ماء بيسان ثقيل م ١٨٣

([1]) المآجل: بغير الهمز وجمعه مواجل وهو يشبه البركة وفيه عمق وسعة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

	والأنهار الفائضة إليه م٢٤٣
	نهر جارم١٧٢
	قلما تخلو سكة أو دار من نهر جار ص ١٦٥
١:١:٥ (جارٍ)	ماؤها جارٍ ص ١٣٦
	وماء جارٍ م ١٣٨
	ماء شبيه بالبحر غير جارٍ ف ١٣٧
١:١:٦ (صحيح)	ماؤهم غير صحيح م ٣٦٠
	صحة الماء م ٢٧٢
	صحيح الماء م ١٤٤
١:١:٧ (بعيد/ قريب)	آبار ومياه بعيدة منهم ص ٣٠
	آبارهم قريبة م ٢٥٨
١:١:٨ (مالح)	ماؤها مالح ص ١٧٠، ٧٥
	آبار مالحة م ٣٥٣
	و هي مياه املاح قذرة هـ ٢٩٤
١:١:٩ (عذب) وما يرادفه	عذب هـ ١٣٦
	عذبة الماء م ١٢٦
	ماء عذب هـ ٢٩٦
	فإن مياهها طيبة عذبة جارية ص ٦٣
	مياه عذاب هـ ٢٩٤
	ماؤها عذب فرات هـ ٣٦١
	ماؤها عذب يشاكل ماء السماء ولا يغيض هـ ٣٠٥
	وعذب ماؤها فصار فراتاً هـ ٣١٧
	مياه الآبار حلوة قريبة المستقى م ٣٥٧
	قناة صغير عذيبية م ٣٥٣
	ماؤها بارد ع٧٥
	صلاح الماء والهواء ع ٥٤
	آبارهم حلوة م ١٠١، ٣٥٢
	آبار حلوة م ١٠٢
	ماؤها كالزئبق ع ٨٠

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١: ٢ الوصف بالفعل

الفعل	التركيب
١: ٢: ١ (يجري) وما يرادفه	إليه يجري الماء م٢٧٤
	تجري خلال أقاليمهم الأنهار م ٢٤٣
	الماء يسطع جانبيها م ٢٥٧
	الماء يضرب الحائط م ٢١٦
	يعظم ماؤه ويكثر ع ٧٢
	يحيط البحر به هـ ٩٩
	فيسقي جميع ما حفّ به إلى البحر هـ ١٢١
	المياه تتخلّله م ٣٢٧
١: ٢: ٣ (يُحمل)	يُحمل إليهم الماء من بدر م ١٠٠
	يُحمل إليهم الماء من بعد م ١٠٣
	يُحمل إليهم الماء في المراكب م ١٩٠
	يُحمل لهم من آبار ومياه بعيدة منهم ص ٣٠

١: ٣ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
١: ٣: ١ (في)	فيها عين ماء جار ص٧٣
	في المدينة مياه جارية ص ٧٦
	فيه عيون ضعيفة م١٨٧
	في كل بيت ماء جار م ٢٥٢
	فيها أدوية كثيرة هـ ١٥٤
	فيه العيون والآبار هـ ٢٣٦
	فيه أدوية هـ ٢٣٧
	فيه مياه كثيرة هـ ٢٩٠
	في بطن منيم مياه أملاح كثيرة م ٢٩٣
	فيها ماء جار وبساتين ص ١٤٠
١:٣:٢ (ل)	لهم مياه كثيرة وضياع عريضة ص ١٢٥

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

	له نهر جار م ١٧٢
	لها نهر عظيم ص ١٨٧
	لهم ماء جار يدخل في المدينة م ٤٨
	لهم مياه وأشجار كثيرة ص ١٥١
	له/ لها ماء جار ص ١٥٣، م ٢٦٨
	لهم مياه جارية في دورهم ص ١٥٤
	لها ماء وبساتين قليلة ص ١٥١
	ومطعمهم ماء لهم هـ ٣١٢
	لهم ماء وبساتين كثيرة ص ١٥١
	لها مياه جارية غزيرة م ٢٦٨
	لهم عين ماء تجري للشرب ص ١٥٤
١: ٣: ٣ (بـِ)	بها ماء قليل ص ٢٤
	بكند نهر يجري وسط الأسواق م ٢٤٥
	بها عين عجيبة م ٢٦٤
	بها ماء جار م ٢٤٨، ٣٢٨، ٣٢٥
	به أودية من مظاهر همدان هـ ١٥٧
	بها عين ماء ص ١٣٧
١: ٣: ٤ (من)	شربهم من نهر / لنهر/ من أنهـار م ٢٥٢، ٣٢٩، ٣٦٠، ٣٨٠، ٣٧٩، ٢٦٧، ٢٥٧
	مشربهم من آبار م ٢١٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢٦٨، ٣٥٤
	مياههم/ ماؤهم من الآبار ص ٧٨، ١٠٤، ١٢٢
	مياه رساتيقها من الآبار ص ٩٩
	ماؤه/ مياههم من السماء ص ٥٤، ٤٦، ٢٣
	مياه نخيلهم وزرعهم من الآبار ص ٢٣
	ماء أهلها من عين تجري لهم ص ٢٤
	ماؤهم للشرب من جيجون ص ١٦٧
	مياههم من الأمطار والآبار ص ١٥٢
	ماؤها من القني/ قني ص ١٥٤
	سقيتهم وشربهم من نهر عظيم ع ٧٣

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

	مشاربها من شرفات ذي جرة هـ ١٥١
	منه شربهم ص ١٧٤
	شربهم من عيون فيه/ من أعين م ٧٦، ٢١٨، ٣٢٩
	شربهم من ماء جار م ٢١٦
	شربهم من قني م ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٨١، ٣٧٩، ٣٧٧
	شربهم من قني ظاهرة على وجه الأرض م ٣٦٠
	شربهم من آبار مالحة وبرك م ٣٠٣
١: ٣: ٥ (لا)	لا ملح ولا عذوبة هـ ٢٩٣
	لا ماء فيه هـ ٢٥٤
	لا مياه جارية م ٢٦٨
	لا أعرف به ماء رديّا م ١٤٨
١: ٣: ٦ (ليس)	ليس بها زرع ولا شجر ولا ماء ص ٣٠
	ليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع ص ٤٦
	ليس بها نهر ولا بئر ولا عين ص ١٣٦
	ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ص ٤٦
	ليس بينها ماء رديا م ١٤٨
	ليس بهم آبار تشرب ص ٢٣

يبدو مما سبق اعتماد التكرار في خطاب الرحلات، إذ يندرج ضمن الأساسين الآتيين:

أ- تكرار الموضوعات.

ب- تكرار الألفاظ.

هذا التكرار هو المسؤول الأول عن تفرّد أدب الرحلات، وتميّز خطابه، فهو الإطـــار العام الذي يحدّد القضايا التي شغلت الرحالة، ويبرز ما واجهه من احتياجات أو رغبـــات أو معيقات.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لم تأتِ الموضوعات والألفاظ المكرّرة عشوائياً، بل إنّ الرحالة كان يعتمد مبدأ الانتقاء بوعي منه لما ينتقي ويكرّر، لتعزيز ما يريد ترسيخه في الأذهان، فلو لم يكرّر لما استطاع أن ينقل تجربته العميقة، وأن يثير الإحساس لدى المتلقي.

عدّ علماء الخطاب التكرار (Recurence) من وسائل السبك (Cohesion) [1]، فإعادة المعنى بألفاظ مختلفة، تعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة متماثلة في طابعها العام، ومتغايرة في دلالاتها، فيرسل المرسل بوساطتها رسالته، ويعبّر عن تفاعله مع ما يرى، باختيار الصور اللغوية الملائمة، فيجعلها موافقة لما يشعر به إزاء كل موقف.

والتكرار هو دلالة اللفظ على المعنى مردّداً، فقد قسّمه[2] العلماء إلى تكرار مفيد وغير مفيد، بناء على اللفظ والمعنى مجتمعين، أو بالنظر إلى أحدهما دون الآخر. ومما لا شك فيه أنّ المرسل إذا أتى بتكرار دون فائدة مبتغاة فقد أضعف خطابه، ويكمن الدور الأكبر لمتلقي الخطاب في أنّ جانباً خفيّاً للفظة المكرّرة، أو أنّ ثمّة تأثيراً نفسيّاً وقع فيه مرسل الخطاب إثر تكريره للألفاظ أو المعاني.

لابدّ إذن أن يكون للتكرار إيحاء معين في الخطاب، بغض النظر عن مستوى وصول ذلك للمتلقي وإدراك خلفياته، وبوجوده يحقّق نوعاً من أنواع التماسك أو الاتساق الخطابي، فهو مظهر من مظاهر اتساق الخطاب، ويراه علماء الخطاب وسيلة نحوية للربط بين عناصر في النص، بإعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصر مؤلّف أو اسم عام[3]، وعند النظر إلى ما سبق من ترادف أو شبهه فإنّنا نجد مثلاً المفردات: (عذب،

([1]) النص والخطاب والإجراء، روبرت بوجراند، ص ٣٠١.

([2]) المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، ٣/ ٨ .

([3]) انظر لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب محمد خطابي، ص ٢٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لطيف، بارد، حلو، صاف، طيب، صحيح) تدور حول المعنى نفسه، لما تحويه من اتّفاق بـــادٍ في وصف الماء.

وهذا المعنى يبثّ فيه الرحالة حاجتهم الخاصة إثر تنقلهم مـــن مكـــان إلـــى آخـــر، وشعورهم بالعطش الشديد ــ وهو المطلب الأول للجسم- لذا تراهم يتلاعبون بمفردات وصفه ويختارونها مريحة للسمع، كما أراحهم الماء عند الشرب بتكرار الحرفين الـــشفويين (البـــاء، الفاء) في "عذب، بارد، لطيف، صاف، طيب" ، فمن النظرة الأولى يبدو عذباً لطيفاً بارداً، ممّا يجعل الرحالة يستعذبون اللفظ إثر استعذاب الماء، ولحرفي (العين، الحاء) دورهما أيضاً فـــي هذا التكرار المعجمي، فخروج النفس الطويل عند نطقهما، يجعل الرحالة يصلون إلى الراحة المرجوّة بشرب الماء، فيقولون: "عذب، حلو، صلاح".

أمّا باعتبار النظر إلى البنية الصرفية، فإنّنا نرى تنوّع صيغ أسماء الفاعلين والصفات المشبّهة، فإن كان الماء بارداً في هذه اللحظة وصافياً، فهو عذب وطيّب في كـــلّ اللحظـــات، فالمغايرة بين البنيتين الصرفيتين تؤكّد طيب الماء وتميّزه، إذ يعكس باللفظ راحتـــه، وتلـــذّذه. والمصدر كما في (صلاح) يُؤكّد ثبات الماء على وضعه الحسن، وعـــدم تغيّـــره، وترســـيخ وصفه.

يقودنا التكرار السابق إلى نوع مقابل له وهو (التضام) [1]، بتوارد أزواج من الكلمات بالفعل أو بالقوة تربطها علاقة ما، ويسهمان في نصية الخطاب وتماسكه كالأزواج الآتية:

(حلو ـــ مالح)　　(كثير ـــ قليل)

(بعيد ـــ قريب)　　(خفيف ـــ ثقيل)

(واسع ـــ ضيق)　　(جار/ فائض ـــ غير جار)

([1]) المصدر السابق، ص ٢٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إنّ العلاقة النسقيّة التي تحكم هذه الأزواج في خطاب الرحلات هي علاقة التعارض، والتعارض يضفي على جو الوصف حكم الواصف ونظرته، فالآبار قريبة حيناً، وبعيدة حيناً آخر، وكثيرة، وقليلة، وهكذا. كما نلمس تكرار المفردتين (كثير)، (غزير) كثيراً.

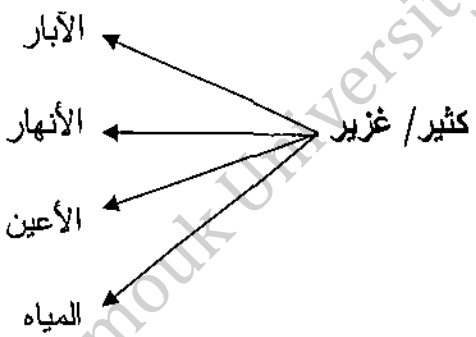

تبدو الديمومة المتمثلة بالصفة المشبّهة موحية بالأمان والاستقرار، وكأنّ نفس الرحالة تبحث عمّا يخفّف عنها وطأة السفر، ويؤنسها في الارتحال، فتتشبث بهاتين اللفظتين، وتستخدمهما في الوصف، لبنية الماء، فتعطيها تلازماً وخصوصية، بتكوين تركيب الإضافة، وتعطيها خصوصية غير متلازمة بتكوين تركيب النعت، وكأنّه في التركيب الثاني جاء بالنعت مشبعاً بالكثرة، فهدأت نفسه، واستقرّت، فلم تعد لفظة (كثير) لها السبق في كلامه، بل أخرّها مطمئناً في مغايرة مقصودة، ويمكن توضيح ذلك في الشكل الآتي:

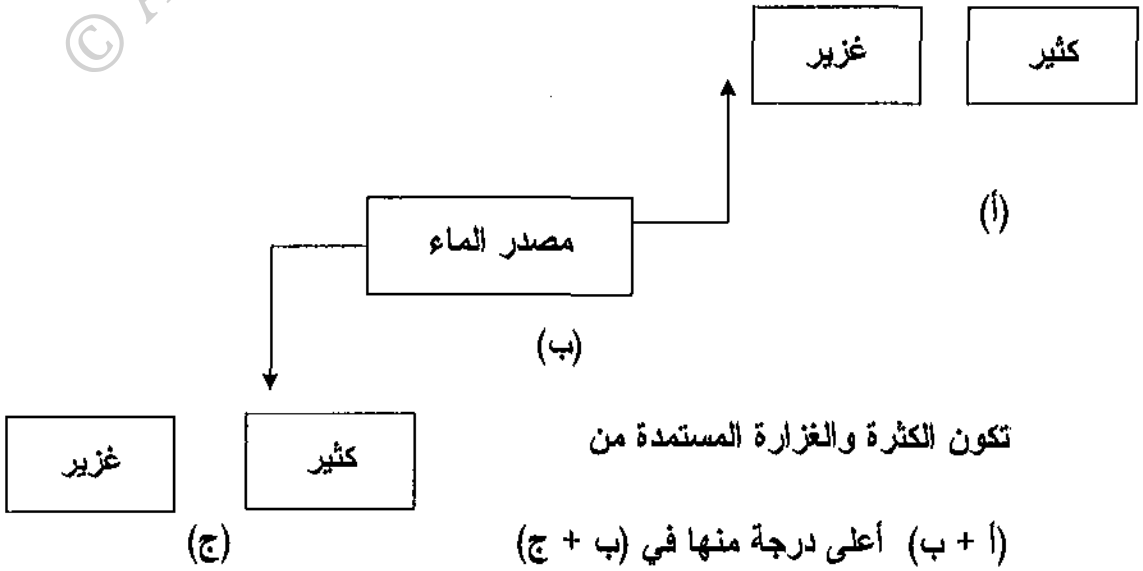

تكون الكثرة والغزارة المستمدة من (أ + ب) أعلى درجة منها في (ب + ج)

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن الأوصاف الغريبة التي استخدمت في وصف الماء المفردات (ضيّق، خفيف، ثقيل)، لكنها ليست شائعة عندهم جميعاً، إذ وظّف خطاب أدب الرحلة بها استياء رحالته، وحمّلها ما أراد نزعه من مخيلته، لذا لم يكثر منها، ومرّ بها مروراً، فالصوتان (القاف، الضاد) خاصة يوحيان بعدم ارتياح، ومحاولة خلاص سريعة، تجعله لا يطيل الرؤية ولا الوصف.

أمّا الأفعال المستخدمة في وصف الماء فتبدو في المجموعتين الآتيتين:

أ- مجموعة مفضّلة للرحالة، وهي أفعال (يسطع، يضرب..... الخ)، فهي تدلّ على وجود الماء في المكان المذكور، بغض النظر عن كيفيّة ذلك، فحقّقت بذلك شبه ترادف في المعنى المقصود، وهو وجود الماء. فمن صواب طرق الصياغة أن تخالف ما بين العبارات بتقليبها بواسطة المترادفات[1].

هذا المكان له هيبته وسلطته، فيقدّمه الرحالة حيناً على الفعل ولفظ الماء، كما في: "إليه يجري الماء"، ويعطيه صدارة الكلام، ويقدّمه على لفظ (الماء) فقط، كما في: "تجري خلال أقاليمهم الأنهار"، ويؤخّر الفاعل إكراماً له، ويجعل الماء خصوصيته وملكه، كما في "يعظم ماؤه"، فيعلي مقامه، ونراه يصف أمكنة أقلّ احتواء على الماء، فيجعلها في جملة خبر المبتدأ (الماء)، كما في:

الماء يضرب

الماء يسطع ←——— **أهمية الماء لا المكان**

المياه تتخلّله

([1]) النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص ٣٠٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ب- مجموعة لم يفضّلها الرحالة لعدم اكتفائها بالماء، واعتمادها على غيرها. ويبينها بالفعل (يُحمل) المبني للمجهول، فهمّش المكان، وعظّم أمر (الماء) باعتباره المبتغى الذي صيغ البناء للمجهول من أجله، كما في قوله: (يُحمل إليهم الماء)، فلم يكن تأخير نائب الفاعل لأهمية المكان المقدّم المشار إليه بالضمير (الهاء)، وما دلّ عليه إفراداً وجمعاً، وإنما لبيان المسافة الطويلة التي تُستغرق أثناء حمل الماء من مكان بعيد إليهم.

وإذا نظرنا في الأدوات التي استخدمت في أدب الرحلة في ذلك القرن، فنجد توظيفاً لها من أجل إثبات أحد الأمرين الآتيين:

أ- وجود الماء كما في الأدوات (في، بـ، لـ، من).

ب- عدم وجود الماء بأداة النفي (لا)، و (ليس)*.

وكان خطاب أدب الرحلة في الحالتين يعوّل على الجملة الاسمية، لتوصيل ما يريد، فأخرج ذلك إثر قولبة خاصة، تمثلت في الأنواع الآتية من الخطاب:

١- تصدير الوصف بشبه الجملة المكوّنة من الأداة والمكان الذي غالباً ما يُشار إليه بالضمير، ثم ذكر مصدر الماء، كما في: (بها عين ماء)، و (فيه العيون والآبار)، و (لهم مياه).

٢- إضافة النعت للوصف السابق، وفق مقابلة (الكثرة- القلة)، وفي تقديم شبه الجملة إثبات وتأكيد، فدلّت على أن وجود الماء ليس إلّا فيه أو به أو له، دون توقّع نقيض ذلك، أو تخيّل الأمر وعدم التثبّث منه.

(*) صنّفت "ليس" مع الأدوات، لفقدها الحدث.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣- تصدير الوصف بذكر (الماء أو الشرب)، ثم إضافتها إلى ضمير يعود علـى المرتحل إليهم، ثم الأداة ويليها مصدر الماء، كما في (شربهم من نهر.....).

٤- إضافة النعت للوصف السابق.

نظر أدب الرحلة إلى المكان نظرة متفحص واعٍ، فرآه مكاناً مرضيّاً عنه في القولبـة الأولى باحتوائه على الماء، فجعل الضمير المشير إليه في أول الجملة، إذ تـوحي الظرفيـة المكانيّة المتمثلة بالحرفين (فـ، بـ) بمناسبة المكان للارتحال إليه، أما (لـ) الاختـصاص، فتوحي بأمان واطمئنان للرحالة بتخصيص الماء للمكان وأهله، فلا ينفد منه ولا يزول عنـه. وعندما يضيف النعت إلى الوصف السابق يزداد الرضا عن المكان حيناً، ويقلّ حيناً آخر تبعاً للقصد من النعت سلبا أو إيجابا. والمكان ما زال محور الحديث وبؤرته في الحالتين، فالتنكير تتحدّد معالمه في هذا النسق، وتتّضح مقاصده بالوصف المشير إليه كما في المثال الآتي:

حرف (في + بـ + ل) المتصل بالضمير	+	عين ماء + جار ← كثرة عين ماء + ضعيف ← قلّة

أما في خطاب(شربهم من) ففي ذلك إشارة إلى قلق الرحالة من عدم اتضاح معـالم وجود الماء، فيبحث كي يريح نفسه عن مصدر الماء، وما إن يجد هذا المصدر يتّجه لثبـات الجملة الاسمية، ليجد بها ضالته، دون مفاضلة بين أركانها، بل يكفيه أنّـه توصّـل لمعرفـة مصدر الماء، لذلك لم يكثر من النعت في هذا النسق، واعتمد وجود مصدر الماء فقط، وكـأنّ رضاه عن أمكنة هذا الوصف وصل إلى أقلّ درجاته، وكذلك الأمر في: (منه شربهم)، إلّا أنّ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الخطاب هنا بيّن أهميّة مصدر الماء بتقديم شبه الجملة، وهذه الأهمية لم تُعلِ درجة الرضا بشيء يوصلها إلى درجة الخطاب الأول في القولبة السابقة.

ويمكن توضيح الأمر في ما يأتي:

أ: حرف الجر (إلـ) >

ب: الحرفان (في، بـِ) >

ج: حرف الجر (مِن)

يمثّل هذا درجات متفاوتة لرضا الرحالة في خطاب أدب الرحلة عن الأماكن المرتحل إليها في مسألة وجود الماء.

أما نفي وجود الماء فجاء نفياً قاطعاً كقوله: (لا مـاء.....)، وخصوصاً لنفي صلاحيّته كقوله: (لا عذبة) ، وكأنّ في هذا النفي كره للمكان، فأراد الخطاب إثبات عدم وجود الماء فيه، بالاسميّة الغالبة على نفي الصلاحية.

٢: وصف التربة والمزروعات

شاع في خطاب أدب الرحلات ذكر مسميات المزروعات للأماكن المرتحل إليها، وبدا من ذلك اهتمام الخطاب بتقديم الموصوف بصورة جميلة، فجاء الوصف بالاسم، وبالفعل، وبالأداة كوصف مصادر المياه.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١:٢الوصف بالاسم

وُصِفت خيرات الأماكن المرتحل إليها، وعُرِضت بأسلوب تقسيميّ واضح في خطاب أدب الرحلات، فعني الخطاب بذكر أوصاف الخير والعطاء من كثرة وخصوبة وجودة، كما يتضح في الجداول الآتية:

الاسم	التركيب	التركيب
٢: ١: ١ (كثير)	كثيرة المزارع م ٢١٨، س ٢٥٧	كثيرة البساتين والفواكه م ٣٢٩
	كثيرة الكروم والمزارع م ٢١٨	كثيرة الجوز والفواكه م ٣٢٥
	كثيرة الفواكه م ٥٧، ٥٠ ، ٣٢٥، ٣٧٩	كثيرة الطعام والتمور والأعناب ص ١٤٠
	كثيرة البساتين م ٢٥١، ٢٥٢، ٢٩٩	كثيرة المفاخر والفواكه م ٣٢٦
	كثيرة الأعناب الجيدة والمزارع العذبة الطيبة م ٢٥٢	كثيرة البساتين والرساتيق والزروع ص ١٠٨
	كثيرة المعاصر والمزارع والشجرة والفواكه والخيرات م ٢٥٣	كثيرة الخير ص ١٠٨
	كثيرة الفواكه والخيرات م ٢١٦	كثيرة الزرع والثمار جداً ص ١٠٨
	كثيرة الجوز م ٤٤	كثيرة الثمار والزروع خصبة ص ١١٧
	كثيرة الزيتون والكرمات م ٢٨٨	كثيرة العناب م ٢٧٦، م ٢٩٨
	كثيرة الزيتون والتين م ٢١٨	قليلة الأشجار م ٢٧٦
	كثيرة التوت والزيتون م ٢١٨	كثير المزارع م ٢٧٤
	كثيرة التين والأعناب والزيتون م ٢١٨	كثيرة الفواكه والأعناب م ٢٧٤
	كثيرة الفواكه والخيرات م ٢١٦	كثيرة الأنهار والثمار م ٢٧٧
	كثيرة الأشجار م ٢١٥	كثيرة الفواكه والزيتون والرمان م ٣٠١
	كثيرة الزيتون والأشجار م ٢١٨	كثيرتا الماء والشجر والزرع ص ٤٦
	كثيرة الكروم والمزارع م ٢١٨	كثير النخل والمزارع ص ١٣٠
	كثيرة الأعناب م ٢٦٦	كثيرة الأعناب والفواكه س ١٣٧
	ولا تسأل عن كثرة البساتين م ٢١٥	كثيرة البقر والزرع والعسل س ٢٢٢
	بساتين كثيرة وسدر وريحان م ٢٦٥	كثير الخير عتيق الخيل كثير الأعناب والمزارع س ٢٢٤

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

	بساتين كثيرة م ٢٦٨	كثيرة الزرع والورس والعسل والبقر
	تين كثير م ٢٦٨	س ٢٢٨
	أرزاز كثيرة م ٢٩٨	كثير الأعناب س ٢٤٠
	كثيرتا المياه والأشجار والزروع ص ١٢٤	كثير النخل والآبار س ٢٨٥
	وهي مدينة كثيرة البساتين والماء الجاري	كثيرة التمور م ٢١٦
	ص ١٧٥	كثير النخل م ٣٥٨، ص ٢٧، س ٣٣٠
	فواكهها كثيرة ص ١٨١	معدن التمور م ٣٥٨، ٣٧٧
	كثيرة المراعي والرياض ص ١٨٤	كثير المياه و الاشجار و الثمار ع ٦٠
	شجر كثير ف ١٦٨	كثير النخل و الرمل س ٢٨٩، ٢٩٥
	كثيرة النخل والمزارع س ١٣٠	
': ١: ٢	مشجّرة خصبة م ٢٦٣	وهي على غاية الخصب ص ١٥٦
خصب)	مشجّرة م ٢٦٣	وهي على غاية الخصب والسعة صر
	خصبة ص ٣١، ٣٥، ٣٣،٣٤، ١٥٤، ٥٨	١٦٧،١٤١
	عظيمة خصبة ص ٣٦	خصبة صغيرة ص ١٦٧
	خصبة واسعة ص ٣٦	بلدهم خصب س ٤٤
	صغيرة خصبة ص ٤٢	وهي في غاية الخصب ص ١٥٣
	عامرة خصبة ص ٤٥، ١٧٥	مشتبكة م ٣٦٠
	وهي خصبة ص ٤٦	مشتبكة البساتين و المياه و الاشجار و
	وهي ناضية خصبة ص ١٠٦	القرى العامرة ص ١٥١
	وهي خصبة جداً ص ١١٠	خصبة ص ١١١، ١١٧، ١١٨

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢: ١: ٣ (جيد) وما يرادفه	صحيحة التربة ص ١٥٢ طيبة التربة ص ١٥٢ مليحة التربة م ٩٩ جيد الثمار م ١٤٣ معدن الأعناب والفواكه النقية م ٣٦٧ نزه في الكروم والأعناب الجيدة والفواكه الحسنة م ٢٧٤ حسن الثمار م ٢٧٦	حسن الأعناب م ٢٩٨ حسنة الثمار م ٣٠٠ جيدة التمور م ١٠٠، م ٣٧٧ لذيذة الثمار م ٣٢٤ حسنة الفواكه م ٣٢٢ ضياع قليلة وفواكه لذيذة م ٢٩٨ زكي المزارع م ٢٥٠
٢: ١: ٤ (ذا/ ذات)	ذات مزارع كثيرة م ٢٤٤ كلها ذوات أنهار وأشجار ص ١٥٦ ذات نخيل وزروع ص ٤١ ذات أنهار وأشجار وزروع كثيرة ص ١٥٦ ذات زروع كثيرة ومياه وأنهار ص ١٦٧ ذي أعناب وزروع س ٢٦٢	ذي نخل س ١٧٣ ذات نخل ونخيل م ٢٢٩ ذات نخيل كثيرة ص ٢٣ ذات نخل وزروع وشجر ص ٥٤ ذات قرى وسعة وخصب ص٣٤

٢:٢ الوصف بالفعل

الفعل	التركيب	التركيب
(أحاط) وما يرادفه	تحيط بها مياه كثيرة وأشجار وزروع متصلة ص ٤٥ يحفّ بأبوابها كلها البساتين والكروم ص ١٥٦ قد التفت بها الأشجار م ٢٤٤، ٢٥٢ اشتبكت فيه الأشجار م ٣١٣ ثمّ نخيل وقرى قد أحاط بها م ١٠٣	يحدق بالبلد البساتين والنخيل وتجمع الأضداد من الثمار م ٣٧٩ اجتمع فيه ٠٠٠٠ والجوز والنخل م ٣٧٦ قد أحدق بالجميع البساتين الحسنة م ٣٦٠ قد حفّت بها النخيل والبساتين م ٣٤٣

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢: ٣ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب	
٢: ٣: ١ (على)	والغالب عليها الأشجار العالية والغياض والمياه ص ١٢١ والغالب على ثمارها الأعناب ص ١٣٠	الغالب عليهم الزروع وبساتينهم قليلـــة ص ١٥٣ الغالب عليهم زروعهم الأرز ص ١٠٥
٢: ٣: ٢ (لا)	لا بساتين لها زاكية م ٢١٨ لا ٠٠٠٠٠ ولا فواكه كثيرة م ٢٧٤ لا نعم ولا فواكه م ٣٠٤ لا نبات فيه ص ١٣٦	لا نبات فيها س ٢٢١ لا يرى فيه نخيلاً ص ٢٤ لا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبـــات ع ٣٩
٢: ٣: ٣ (ليس)	ليس بها نخيل ص ١٠٦ ليس عليه كثير شجر ولا نبات ص ١٢٣ ليست لهم مزارع ص ١٥٦ ليس ببلد نخيل م ١٠٣ ليس لهم كثير شجر ولا نخيل ص ١٠٤	ليس ببلادهم نخيل ولا زروع ص ٢٧ ليس للعرب بها ماء ولا مرعى ص ٢٠ ليس حواليها بساتين وأشجار ص ٧٨ ليس حواليها شجر ولا بساتين ص ٧٧ ليس بها زرع ص ١٣٧
٢: ٣: ٤ (فـــي)	فيه نخيل وتين كثير ورمان ص ١١٨ فيهما مياه وأشجار وزروع ص ١١٨ وهي في أرض سهل ص ٨٤ فيه قرى وزروع وأعناب س ٢٤٩ في رؤوسها الماء والمرعى والزرع والقرى س ٢٤٩ فيه قرى ومساكن ومزارع س ٢٥٢	فيه نخل س ٢٥٣ فيه آراك س ٢٥٣ فيها أعناب وآبار س ٢٥٧ فيه التفاح واللوز والثمار س ٢٦١ فيها زروع س ٢٦١ فيها نخل وزرع س ٢٨٣ فيه نخل كثير س ٢٨١
٢: ٣: ٥ (بـِ)	به تين وزيتون م ٢٩٨ به قرى ومساكن ومزارع متفرقة مفترشة ص ٣١ بها نخيل وثمار كثيرة ص ٤٠	بها فواكه كثيرة ونخيل وأعناب ص ١٤٣ بها نخيل وفواكه وزروع ص ١٤٢

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

	بها نخيل وعيون مفترشة قليلة ص ٤١ به عيون وأنهار ونخيل ص ٤٥ فإن بها نخيلاً كثيراً وزروعاً ص ٤٢ به القرى والزرع س ٢٦١ بها نخل وسكن س ٢٨٠ بها النخيل وحصن منيع س ٢٨٦ بها نخيل ص ١٤٠ بها نخيل كثيرة ص ١٣٦ بها نخيل م ١٠٢ به نخيل كثيرة م ١٩٦	بها نخيل وأعناب ص ١٤١ بها نخيل وأشجار ص ١٤٢ بها نخيل وفواكه وزروع ص ٦١ بها زرع يسير ص ٣١ به الحصون والنخل والزرع س ٣٠٤ به النخل والزروع والآبار والحصون س ٣٠٦ به الزرع والآبار والحصون س ٣٠٦
٢: ٣: ٦ (ب)	لها بساتين م ٢٦٨ لهم بساتين وكروم كثيرة م ٣٠٤ لهم مزارع كثيرة م ٣٠٤ لها زروع سقي ومباخس[1] ص ٤٦ لهم مياه وبساتين وزروع كثيرة خصبة ص ١١٧ لها أنهار وبساتين وفواكه كثيرة ص ١١٨ لها مياه وأنهار وزروع ص ١١٨ لها زروع ومياه وبساتين ص ١٢٣ لها أعناب كثيرة وجوز ص ١٢٣ لها كروم وأشجار كثيرة ص ١٥٦	لها سهل ومياه جارية وبساتين ص ٨٧ لها مياه وأشجار وزروع كثيرة ص ٤٦ لها فواكه وأعناب كثيرة وزبيب ص ١٢٤ لها نخيل كثيرة ص ١٠٥، ص ٢٣ لها نخيل متصلة ص ٥٧ لهم مباخس كثيرة ص ١٥٢، ص ٥٣ لهم مياه وأشجار كثيرة ص ١٥١ لها بساتين ومياه ص ١٥١ لها كروم وبساتين كثيرة ص ١٥٣ لهم كروم مباخس كثيرة ص ٥٠١ له سهل وجبل وسقي مزارع ومراع ص ١٨١

(1) البخس من الزرع: هو الذي يسقيه ماء السماء.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

تستلزم إفادة التواصل وجود مرسل، ومتلقٍ، وبنيتين مسندتين: إنتاجيّة وتأويليّة. ولمّا كان المرسل، والمتلقيّ عمادين أساسيين في العمليّة التواصليّة فإنّ الأمور تستوجب مكوّناً رئيسيّاً رابطاً بينهما تشكله القناة، وهكذا تحصل المحدّدات القاعديّة التقليديّة لكل فعل تواصليّ: المرسل، والقناة، والمتلقي[1].

يهدف التواصل إلى إيصال خبر ما بأشكال لفظيّة مختلفة، عبر مرورها بقناة التواصل المشتركة." فالخبر هو المعلومة الجديدة التي تمنح المتلقي وصفاً يجهله عن حدث معين" [2]، فيشكّل مضموناً يضمن الفائدة التواصليّة، بين المرسل والمتلقي. ويعبّر عن انفعال المرسل إثر مشهد ما علق بذهنه، فجعله يتأثّر به، فتأتي رسالته لتحقّق إشباعاته الفرديّة أولاً، ثم الجماعيّة ثانياً، بالنظر إلى بنية المحيط الاجتماعيّ له.

جعل هذا الأمر أدب الرحلة قادراً على بناء نسق وصفيّ يظهر فيه اشتياق الرحّالة إلى ترابه، وبعين العربي الذي أحبّ الأرض وتعلّق بها، فلم يرتب المعاني في ذهنه، أثناء الترجمة اللفظيّة لحسّه، بل حشد من الألفاظ التكراريّة، ليس بهدف معرفتها، بل بهدف إرضاء الذات المرتحلة؛ لذا عبّر عنها بألفاظ توحي بالوفرة والجودة، فجاءت المفردات:

(كثير، جيد، حسن، لذيذ، زكي، خصب..... الخ).

رافقت الكثرة هذا الخطاب في وصف المزروعات، وتعدّدت أشكالها، من كثرة مزروعات وبساتين وأشجار، إلى كثرة معيّنة تتغاير من مكان إلى آخر. ولم ينسَ الماء الذي باجتماعه مع هذه الكثرة يصل الرحالة إلى مقصده ورضا نفسه، فيجعل الوصف مشتملاً على كلا الأمرين كما في:

([1]) انظر تحليل الخطاب الصحافي من اللغة و السلطة ، أحمد العاقد، ص ٣٠.

([2]) المصدر السابق، ص ٣٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(كثير النخل والآبار)، (كثيرتا المياه والأشجار والزروع)، (كثير الأنهار والثمار)، .... الخ.

وهذا الخطاب التواصليّ دالٌّ على المحيط البيئيّ والاجتماعيّ والثقافيّ للمرسل، فاكتسب المحيط مكوّناً سياقيّاً له أهميّته في إبراز الملابسات والظروف المصاحبة، أو المتزامنة أثناء رؤية الموصوف.

وعلاوة على ما سبق تبدو الكيفيّة لصياغة المنتجات الإدراكيّة وتأثيرها عبر قناة توافق طبيعة المضمون التواصليّ[1] مظهرةً ملامح تأثّر الرحالة إزاء الرسالة المبلّغة، ومدى إشباعها لحاجتهم وتحقيقها لغاياتهم، فعمدوا إلى العطف كثيراً في وصفهم، إذ لم يكتفوا ببيان نوع واحد من الكثرة في المكان الموصوف، بل اهتمّوا ببيان أفضليّته وإنتاجه الوفير، فاستخدموا الوصل بالعطف مثل:

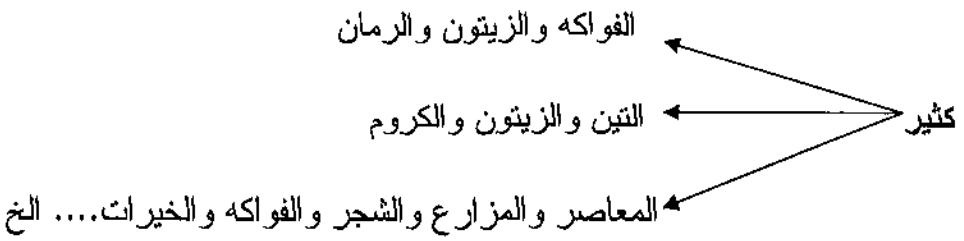

يحقّق الربط بأداة مطلق الجمع ترابطاً رصفيّاً للخطاب وتماسكاً في بنيته السطحيّة[2]، باعتماده أسلوبيّة الواقعيّة التسجيليّة، وتركيزه على مشاهدات لعدد كبير من الموصوفات، فجعلها خطاب أدب الرحلة تشترك بالأحداث، للوصول إلى مشاركة المتلقيّ له في هذا الكمّ من الخيرات.

([1]) انظر المصدر السابق، ص ٣٤- ٣٦.

([2]) انظر النص والخطاب والإجراء، بوجراند ، ص ٣٠٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وتبدو أسماء المزروعات المذكورة بكثرة في بيئة الرحلة العربية، كالنخل مثلاً وفي بيئة المكان المرتحل إليه كأنواع كثيرة من الفاكهة، إذ يكشف توزيع المسمّيات لها عن موقف الرحالة التواصليّ مع المتلقيّ، إزاء هذا الوصف المعتمد على التجاور، فيوجد شكلاً من أشكال المجانسة؛ لأن الكلمات المتجاورة عبّرت عن مجانسة مكانية زمانية[1] للمكان الموصوف، انعكس وجودها على مستوى الخطاب الإنتاجيّ.

قلّب خطاب أدب الرحلة الأسماء؛ لتدور حول موضوع واحد، يوحي بايجابية الوصف للمكان المرتحل إليه، ويثير شعورا بالجمال، إذ مكّن أدب الرحلة من جعل عالم النص صورة تُعكس في نفس الرحالة أولاً ثم في خطابه، فأثار بذلك انتباه المتلقي لما يريد إيصاله، من حبّ للأرض وخيراتها، فهي مؤنسه الأول في تنقله، وفي خيرها وعطائها أمن واستقرار له. لذلك يلجأ خطاب أدب الرحلة لتكرار هيكليّ بنائيّ، في الأسماء السابقة الذكر، "فالقاعدة الأوليّة في التكرار، أنّ اللفظ المكرّر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام، وإلّا كان لفظة متكلفة لا سبيل إلى قبولها"[2]، والكثرة الملازمة في هذا النسق التركيبيّ حدّدت إصرار أدب الرحلة، على موقف من ثبات إيجابية الوصف، وحضوره الفاعل، وكأنّ الرحالة يخشى أن يغفل متلقيه عن الصورة الخضراء التي يرسمها في صفحات رحلاته، فيبثّ الخطاب هنا وهناك ما يجعل متلقيه متيقّظاً دوماً لها، وما يمكّنه من رؤية الألوان، في مفرداته المتمثلة بأنواع النبات والفاكهة.

جاء الخطاب متماشياً مع الكثرة في الوصف بالفعل أيضاً، إذ لم يستخدم من الأفعال إلّا ما دلّ عليها كخطاب: (تحيط، يحدق، اشتبك.... الخ). فظهرت الكثرة للأشجار والبساتين

([1]) انظر اللغة العليا، النظرية الشعرية ، جون كوين، ص ٢٠٤.

([2]) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ص ٢٦٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

والثمار مرة أخرى، وكأن الخطاب لم يعد يرى غيرها في هذا الوصف الجمالي.

أمّا توظيف الفعل في خطاب وصف المزروعات، فيبدو في تضمّنه لأربعة أنواع مختلفة من العمل هي:

١- فعل الإنتاجية الإيجابية كالأفعال: يحيط، يشتبك، يلتفّ.

٢- تكوين جملة الفعل وضمّه إلى عناصر إسنادية تصف جمالية الطبيعة.

٣- وضع الجملة ضمن سياقها الخطابي.

٤- تحقّق صورة الوصف.

يبدو في العمل الرابع هدف المرسل ومبتغاه، فيمكن لشخصين أن يقولا الشيء ذاته، دون أداء العمل الكلامي نفسه[١]، ودون النطق بجملة مشتركة واحدة، كما يمكنهما القول إنّ شيئاً ما يكون أو لا يكون بأساليب مختلفة، تنمّ عن إيحاءات مختلفة أيضاً، فالأفعال شبه المترادفة تتقارب إلى درجة أنها تصبح ذات مدلول واحد، وتتباعد إلى الحدّ الذي يصبح فيه لكلّ لفظة مدلولها الخاص، فهذا ابن الأثير يقول: "ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد وكلتاهما حسنة في الاستعمال، وهما على وزن واحد ، ....إلا أنّه لا يحسن استعمال هذه مع كلّ موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دقّ فهمه، وجلّ نظره[٢].

أمّا الأداة فحالها كما سبق بيانه في وصف الماء، فراوح الرحالة بين الأدوات (في، ب، ل) لبيان غنى المكان وكثرة المزروعات فيه، كما قرن وجودها بوجود الماء في كثير

---

(١) انظر اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ص ٢٠٢.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، ١/ ١٦٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

من الأحيان، واستخدم الأداة (على)؛ ليعطي صورة شمولية للمكان الموصوف، بذكر الغالب عليه من المزروعات.

وإعادة الأدوات السابقة لم تكن دون فائدة مرجوة، بل " مهما كانت العوامل المؤثرة فلابد أن يكون هناك اختلاف بين الإعادة التي لا خطر لها، وهي التي تتطلبها المجموعة المحدّدة للبدائل من جهة، وبين الإعادة المقصودة التي يكون للتكرار معها مبررات أعمق"[1]. فلم تكن العملية بالنسبة لأدب الرحلة إلّا إعادة مقصودة، يبحث بها عن استقرار مرتحليه نوعاً ما. فحمّل الأدوات السابقة ما يريد، لما تحتمله من معاني الوجود أو الخصوصيّة أو الملكيّة، فتوحي بإثبات ما يحتاجه الرحالة في الأماكن المرتحل إليها من مقومات الحياة، لذلك يكرّر الرحالة في تنقّلاتهم مفردات النبات والزرع، علاوة على مفردات الكثرة والخصوبة؛ لما لها من تأثير نفسيّ عميق. ومن ثم ينبغي لعملياتهم الوصفيّة أن تكون سهلة، في هذا المجال الوصفيّ لوجود المزروعات، وتحقّق خيراتها، وهذه السهولة وجدت طريقها بالأدوات السابقة؛ لوضوح الدلالة المقصودة منها. فالعناصر المكرّرة ينبغي أن تنطبع بالذاكرة، وهذا الأمر تأتّى للرحالة، بانطباع الطبيعة وخيراتها في مخيلته، ثم نقل تأثير ذلك لغيره.

٣: وصف المناخ

اهتمّ الرحالة في القرن الرابع الهجري بوصف المناخ، وعرضوا أوضاعه المختلفة، وذلك بسبب تنقّلهم المستمر، وتعرّضهم لتقلبات المناخ من مكان إلى آخر، فجاء الوصف كما يبدو في الجداول الآتية:

([1]) اللغة والخطاب والإجراء، بوجراند ، ص ٣٠٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاسم	التركيب
٣: ١ (الحرّ)	حارة في الصيف م ١٠٠، ٢٧٧ في الصيف حارة م ٢٧٠ حارة السوق م ١٠٠ أسوق حارة م ١٠١، ٢٧٥ حارة ص ١٤٠، ١٠٣، ٧٨ حرهم شديد م ١٧٢، ٢١٦، ص ٣١ وادي حار س ٢٢٩، ١٢٢ طبعها حار ع ٧١ في الصيف مؤذية م ١٦٣
٣: ٢ (البرد)	شديدة الحر والبرد م ٢١٦ كثير المطر والبرد والهجاء س ٣٤٧ الغالب عليها البرد س ٣٥٢ فلا يدخلها البرد س ٣٥٢ لا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته ف ١١١ لشدة البرد ف ١١٦، ١١٧ بليّة في الشتاء م ٢٤٩ قوة الهواء م ٢٧٢ كثيرة الرياح م ٢١٨
٣:٣ (طيّب الطقس) وما يرادفه	طيّب في الصيف رفيق في الشتاء م ٣٢٨ شاميّة الهواء م ٩٧ طيّبة الهواء م ١٢٦، ص ٢٤ هواء رقيق م ١٦٢ صحيح الهواء م ١٦٢ طيّبة في الشتاء كثيرة الأمطار والثلوج م ٢٥٢ معتدل في الشتاء خاصة س ٣٤٦ في الصيف جنّة م ٢٤٩، ٣٢٢ طيّب الشتاء م ١٦٢

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لا شكّ أن أدب الرحلة سعى إلى إدراك كلّ ما أحاط بالعالم الخارجي، وحاول التعرف إلى مكوناته وفهمها، وكان أول مستوى لحظه هو المستوى الحسيّ بإدراك شيء حسّيّ ماديّ، فينطوي على هذا الإدراك عمليّة ذهنيّة، وهي التعرف على طبيعة الشيء، وبدا هذا الأمر في وصف المناخ للمكان المرتحل إليه.

ورغم أن هذا المدرك شيء مادي ينتمي إلى عالم الواقع، فهو ذو طبيعة خاصّة، وذو علاقة مزدوجة البنية، له جانب ماديّ تتعرف إليه الحواس، وجانب معنـــويّ يـــرى بـــه أدب الرحلة ما لا يراه غيره، فالرحالة يرون إحساسا عميق الصلة، يربطهم بالمكان؛ لذلك فالمكان الحارّ قد يكون شديد الحرّ أو طيّب الحرّ، وفقاً لما يثيره من شعور خفيّ لـــدى كـــلّ رحالـــة بالمكان، إذ يتحكّم به ذوقه وميوله، علاوة على طبيعة المكان وأهله التي تعكس جوّ المكـــان ومناخه، فقد تجعله جميلا لطيفا رغم ما به من حرّ أو برد، أو تجعله عاديّـــا رغـــم هوائـــه الرقيق. إنّ نفس الرحالة المتنقّل عرضة للأهواء، وتتقلب بتقلّبها إثر التنقّل من مكان إلى آخر، فأحيانا كثيرة لا ترى الواقع، بل ترى ما يعكسه الواقع في النفس.

جاء وصف المناخ حاراً وبارداً ومعتدلاً وفق قولبة خاصة اعتمدت التقديم والتـــأخير، للمعرفة الدالة على المناخ.

ويبدو الأمر في الآتي:

(أ)		(ب)
١- حارّة في الصيف	←	في الصيف حارة
٢- طيّب في الصيف	←	في الصيف جنّة
٣- طيّب الشتاء	←	الشتاء هين

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٤- صحيح الهواء ←——— هواء رقيق

٥- شديد الحرّ ←——— حرّهم شديد

إذن فتقليبات المفردات السابقة بين التنكير والتعريف، وبين الوصف والإضافة دليل على تقريرها في نفس الرحالة، وحرصه على الاهتمام بها بقصد قاصد، وليس مرور كرام. اعتمدها وسيلة في سبك المفردات ونظمها، وأراد بها الاختصاص من جرّاء تحديد صفة غالبة لمناخ المكان المرتحل إليه.

يبدو تقديم الخبر على المبتدأ في الجملتين الأولى والثانية في المجموعة (ب) إثبات وتأكيد يفوق التأخير في المجموعة (أ)؛ لما في ذلك من استحضار الزمان قبل وصف المناخ، فكأنّ مرسل الخطاب يحدّد إطار الوصف أولاً، ثم يقدّم الخبر الذي يريد إيصاله. وفي المجموعة (أ) يأتي الوصف مألوفا في التعبير عن المناخ.

أمّا سائر الجمل، فجرى تقليبها حول التخصيص والإخبار، إذ اعتمد التخصيص في المجموعة (أ) فخصّص الصفة المقصودة وعلّقها بما تلاها من مفردة دالة على المناخ في تركيب الإضافة، بتلازم مفردتين ضمن علاقة تخصيص. وجاءت الصفة المقصودة في المجموعة (ب) خبراً مبتغى وهدفاً مقصوداً للمفردة الدالة على المناخ، فبدت قوة التأثير في المجموعة (أ) في التخصيص أكثر من الإخبار في المجموعة (ب) ، لما توحيه من تلازم وتلاحم بين الموصوف ومفردته، ولما يشغلانه من حيز وظيفيّ واحد في تركيب الإضافة. أمّا توزيع المفردة ووصفها بين حيزين وظيفيين في المجموعة (ب) ، فأعطى الرحالة ذلك التوزيع زمناً لم يُحتَجْه في المجموعة (أ) لإطلاق الوصف.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المبحث الثاني: وصف مظاهر الحضارة

نظر أدب الرحلة إلى المكان المرتحل إليه بتفحّصٍ ووعي، انصب اهتمامه على مظاهر الحياة الحضارية المتمثلة بما يأتي:

١- المظهر الدينيّ.

٢- المظهر الاقتصاديّ.

٣- المظهر العمرانيّ.

٤- المظهر السياسيّ.

١: وصف المظهر الدينيّ

اهتمّ الرحالة بالمظهر الدينيّ، وكان محطّ أنظارهم الأول في كلّ مكان يرتحلون إليه، فهو مأمن نفسيّ لهم قبل أن يكون مظهراً من مظاهر المكان. جاء الوصف كما يبدو في الجدول الآتي:

١: ١ الوصف بالاسم

الاسم	التركيب
١:١:١ (حسن) وما يرادفه	جامع حسن م ٢٠٤، ٢٤٤، ٢٧١، ٢٦٨، ٢٧٥، ٣٨٠ الجامع.... حسن م ١٦٣، ٣٥٨ جامع لطيف م ٢٧٦، ٣٠٠ الجامع ظريف م ٢٥٦، ٢٧٦ جامع عجيب م ١٤٧ جامع نزيه م ٢٤٤ الجامع ٠٠٠٠٠ لطيف م ٣٤٩، ١٢٩ الجامع..... حسن نظيف م ٣٥٥
١:١: ٢ (كبير /صغير/طويل)	الجامع..... كبير م ١٦٣ جامع كبير م ١٧٤

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

	صغيرة الجامع م ١٢٩، ٢٤٤ طويل الجامع م ١٢٨
١:١: ٣ (قريب/وسط/بعيد)	جامعان قريبان من الأسواق م ١٤ الجامع قرب الشط م ١٤٥ متوسطة الجامع وسط الأسواق م ٣٧٧ الجامع وسط البلد م ١٤٥، ١٤٦، ٢٥٧، ٢٦٧، ٢١٣، ٣٥٣ جامعها وسط البلد م ٢٤٤، ٣٨١ الجامع وسطها م ١٧٢ الجامع وسط الأسواق م ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٢، ٣٧٧، ٣٨٩ الجامع ناء عن الأسواق م ٢٤٤، ٣٥٣ الجامع خارج البلد م ١٠٢ الجامع متطرّف م ١٤٧ جامعها ظاهر البلد م ٢٤٤ الجامع مشرف على البحر م ١٧٢
١: ١: ٤ (عامر) وما يرادفه	جامعهم عامر م ٣٢٥ آهله الجامعة م ٢٤٤ مسجدها معمور بالناس على مدار الأيام كلها ص ١٥١ مسجدها جامع ص ١٣٢، ١٦٧

١: ٢ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
١: ٢: ١ (في)	الجامع في السوق م ١٢٩، ٢٦٥، ٢٤٤، ٣٠٢، ٣٥٧، ٣٢٨ جامعها في الأسواق م ٢٤٤، ٣١٥، ٣٥٦، ٣٢٩ الجامع في الربض تحت المدينة عند طرف السوق م ٢٧٣ في وسط ذلك الموضع مسجد م ٣٠٢ الجامع في طرفه م ٢٥٦ الجامع في المدينة م ٢٤٩، ٢٧١ الجامع في البلد م ٣٨١ المسجد الجامع في المدينة ص ١٦٧ مسجد جامع فيه منبر س ١٣٦

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١: ٢: ٢ (على)	جوامعهم على الساحل م ١٠٢ الجامع على طرف السوق م ٢٥٦ الجامع على جانب م ٣٠٣ الجامع على بابه نهر م ٣٢
١: ٢: ٣(لـ)	للجامع باب في الأسواق م ٢٤٤ للجامع باب يشرع إلى الميدان م ٢٤٤
١: ٢: ٤ (من)	مسجداً من خشب ف: ١٦٣
١: ٢: ٥ (لا)	لا جوامع م ٣٠٣ لا لجامعهم في الأيام تلك الجماعة م ٢٧٣
١: ٢: ٦ (ليس)	ليس لجامعهم صحة م ١٠٠ ليس لها منبر ص ٩٩

من الطبيعي أن يُوظّف الخطاب أساساً لتغطية الواقع، ومن ثمّ فمن المحال فهمه بنصّ مجرّد، من غير علاقة دلاليّة مع هذا الواقع، وكان واقع أدب الرحلة في تنقّل وترحال دائمين، ابتدأ منذ اللحظة الأولى التي عايش فيها الواقع، وامتدت أصوله عندما عزم الرحالة على اتّخاذ الترحال مهنة وصنعة لهم، فاختلف الواقع من مكان إلى آخر، وكَثُرت صوره في مخيلتهم وتنوّعت، وتكوّن لديهم من الأخبار الكثير.

نسج خطاب أدب الرحلة العبارات اللغوية ذات الوقع النفسي المؤثّر في المتلقي، من أجل الوصول إليه، ومحاولة دفعه نحو المشاركة بالخبر المنقول. ويشتدّ التأثير عندما يتعلّق الأمر بالمظهر الدينيّ الذي ينشد به راحته النفسيّة، فيجد ضالّته في وصف المساجد في الأماكن المرتحل إليها، وكأنّه يصل مع متلقيه إلى تلك الأماكن، ويريانها عن قرب.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اهتمّ أدب الرحلة بذكر الأوصاف الآتية للمسجد:

١- هيئته وشكله فهو (حسن، لطيف، ظريف..... الخ).

٢- مساحته إن كان صغيراً أو كبيراً.

٣- مكانه بالنسبة للبلد فهو قريب من الأسواق أو وسط البلد أو مشرف على البحر.

٤- وصف إقبال الناس عليه كقوله: (عامر، معمور، آهل).

جاء الوصف بالجملة الاسمية، وعوّل خطاب أدب الرحلة على الخبر في نقل ما يريد إيصاله، فالخبر أعظم التعابير شأناً في النفس، وهو الذي يتصوّر بالصور الكثيرة، ويكون محطّ أنظار المتلقي ومبلغ حديث المرسل؛ كي يرسم صورة عن الجامع الموصوف، وتتحدّد معالمه من تتابع الصور، فما ميّز هذا الجامع أنّه ظريف جميل، أمّا ذلك فقرب مكانه من السوق، وأمّا الآخر فإنّه عامر بالناس.

ومن وجهة صرفيّة يكثر استخدام الصفة المشبهة في وصف الهيئة الخارجية للجامع، وبيان مساحته مثل: (جامع عجيب، لطيف، حسن، نزيه، كبير، طويل)، أمّا وصف المكان وحركة الناس وإعمارها للمسجد، فتنوّعت البنية الصرفية فيهما بين الصفة المشبهة واسم الفاعل، والمفعول، وفقاً لطبيعة الموصوف، فعلاقة الجامع بالأسواق والبلد ليست علاقة ثابتة، لتغيّر مكان الأسواق، أو امتداد العمران في البلد؛ لذا ما كان متوسطاً ومتطرّفاً اليوم لن يبقى على حاله، وإن يثبت الأمر، فليس من الثبات بمكان ثبات الهيئة بحسنها وجمالها، وكذلك الأمر بوصف حركة الناس به فهو عامر معمور، بيد أنّ الثبات لا يوافق ثبات البناء حجماً ومساحة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أمّا البناء النحوي، فيبدو في تلوّن وصف المسجد بين خبر ونعت تبعاً للتعريف والتنكير الذي رسمه الرحالة، فقال:

(جامع عجيب، لطيف، حسن)	≠	(الجامع ظريف، لطيف، حسن)

ليس بالضرورة أن يكون التعريف للتفريق التقليدي الذي يقول بالتقابل بين فكرتي الجديد (نكرة) والمذكور سابقاً (معرفة)، فالجامع من العناصر المنتمية للنظام العام الجمعيّ المعروف، بيد أنّ تنكيره نشّط مساحات ذهنيّة جديدة لم تكن في التعريف، فالتعريف أرشد السامعين إلى النظر المباشر إلى الجامع وحسنه ورسم صورته في أذهانهم، إذ أنّ (الجامع) يوحي بصورته وحده، بمعزل عن المكان الذي قلّت أهميته بالتعريف. أمّا التنكير وسّع الصورة، فجعل الجامع ضمن بؤرة مكانيّة فـ (جامع عجيب) جزء من لوحة المكان المرسومة في صفحة واحدة.

أمّا الأدوات فيتّضح استخدامها لبيان مكان الجامع، كاستخدام الاسم سابقاً، ويظهر هذا جليّاً بالنظر إلى التراكيب السابقة، كما وصف الهيئة أيضاً مثل: (لجامعها نور، للجامع باب، مسجد من خشب، مسجد فيه منبر)، وجاءت الأداتان (لا، ليس) لنفي وجود الجامع، أو نفي شيء من هيئته الشكليّة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢: المظهر العمرانيّ

نظر خطاب أدب الرحلات إلى المظهر العمرانيّ بشقيه: الماديّ، والإنسانيّ، فوصف أشكال البناء الخارجيّة، كما وصف أيضاً العمران السكانيّ في كلّ مكان يُرتحلّ إليه، فجاء الوصف ضمن القسمين الآتيين:

١:٢ وصف البناء

اهتمّ الرحالة بمظاهر عمران المكان، فوصفوها وبيّنوا أشكالها المختلفة من مكان إلى آخر، بتراكيب لغويّة مختلفة تتضح فيما يأتي:

٢: ١: ١ الوصف بالاسم

تعدّدت تراكيب الوصف بين الاسميّة والفعليّة، وعُوّل على الأداة كثيراً في الحالتين، من أجل إبراز هيكليّة البناء في المكان الموصوف، كما يبدو في الجداول الآتية:

الاسم	التركيب
٢: ١: ١: ١ **(حسن) وما يرادفه**	حسن، حسنة البناء م٦١ ، ١٤٤، ١٦٥ حسن البنيان م ١٠١ عجيب البناء م ١٤٦ منازل مليحة أنيقة م ٢٦٩ بناء ظريف م ٢٥٠ حسنة البيوت م ٢٤٨ منازلهم فسيحة طيبة م ١٠١
٢: ١: ١: ٢ **(مشتبك)** **وما يرادفه**	مشتبكة العمارة م ٢٦٧ مشتبكة البناء ص ٧٧، ٧٨ مفترشة البناء ص ١٤٥، ٧٨ متصلة المنازل م ٢٥٤ أبنيتهم طبقات ص ٧٨
٢: ١: ١: ٣	بناؤهم حجارة م ٣٥٧، ٢٦٦، ٣١٥، ١٧٢، ٢١٣، ٢١٦

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

مفردات نوع البناء	بناؤهم حجر غير مؤلف م ٣٥٢ بناؤهم طين م ٢٦٨، ٣٢٨، ٣٧٩، ٢٦٧ بناؤها طين ص ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ٧٨، ١٢٢ أبنيتها طين ص ١٤٥، ١٤٦، ١٥٤ بناؤها الطين س ١٥١ بناؤها طين وخشب ص ١٧٨، م ٢٤٩، ٢٥٢ بنيانهم خشب وطين م ١٦٠ بنيانهم خشب وقصب م ٣٠٤ بناؤهم فركاهات م ٣٠٤ بناؤهم بعض حجارة وبعض فركاهات م ٣٠٣ بناؤهم مدر م ٢١٣ بناؤهم خشب ولين م ٢٤٨ بناؤها خشب مشتبك ص ١٧١

٢: ١: ٢ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
٢: ١: ٢: ١ (من)	بناؤهم من حجارة ص ٤٧، ٣٦ بناؤهم من الحجارة البحرية م ١٩١ بناؤهم من طين م ١٩٠، ص ١٤٣، ٧٧، ١١٧ بناؤها من طين ص ١٥٠، ١٥١، ١١٨، ١٢٥ بناؤهم من جص وحجر م ٣٠٣ أبنيتهم من آراج لقلة الخشب بها ص ٩٩ أبوابها من خشب ص ١٥٠ بناؤهم من الطين والحجارة ص ٧٦ أبنيتها وأبنية سائر هذه المدينة من طين ص ٧٨ أكثر أبنيتها من حجارة ص ٣٥
٢: ١: ٢: ٢ (بـ)	أكثر أبنيتها بالجص والحجارة ص ٥٣ بناؤهم بالساج والخشب ص ٧٨ معظم بنائهم بالطوب طبقات ص ٣٩

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢: ١: ٢: ٣ (على)	الغالب على بنائها الطين ص ١١٩ الغالب عليه بنائها الطين ص ١١٩ الغالب على أبنيتها الخشب والقصب ص ١٢٤

تبدو صفة القالب العباري في هذا الوصف بوضوح، لكنها قولبة إبداعية، أنتجها أدب الرحلة. فالقالب العباري لم يمتصّ فردانيّة المبدع، ولم يقصِها عن عملها، بل جعلها حاضـــرة موجودة، رغم الإنتاج العام المشترك بين الرحلات.

دارت القولبة حول الاسمية في هذا النسق، وكانت بؤرتها لفظة البناء، ضمن إطارين هما:

١- تخصيص الوصف بتركيب الإضافة مثل: "حسن/ عجيب البناء"، أو تركيب الوصف مثل: "بناء ظريف". كما لجأ إلى مرادفات البناء في الحالتين، إذ دار الوصف حـــول اتّفاق المعاني.

٢- إضافة الضمير إلى مفردة (البناء)، ثم بيان نوع البناء، مثل:" بناؤهم من.... ".

وكانت الأداة (من) أكثر الأدوات استعمالاً، وذلك لما تدلّ عليه من بيان للنوع، هـــذا النوع الذي كان هاجساً في خطاب أدب الرحلة، في هذا النوع من الوصف. كانت المغايرة في البناء الشكليّ تضفي على الوصف جماليّة؛ للتشاكل المضموني الواحد كالآتي:

بناء	ضمير الغائب	الـــ من "من الـــ"	طين	= نوع البناء (شكلية) ≠ نوع البناء (دلالية)

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

عندما يلجأ الرحالة إلى التعريف فهو يقول للمتلقي إنّ المحتوى ينبغي أن يكون سهل الاستحضار، فيعطي التعريف العناصر الداخلية في عالم النص حتميّة لا تحتمل الجدل في سياق الموقف[1]، أمّا التنكير فيوحي بافتراض وجود أنواع أخرى من البناء، لكنّها قليلة جداً لدرجة تغليب النوع المذكور عليها. وتعمل الأداة (من) على ربط البناء بنوعه في الحالتين، بيد أن استحضار الخبر دونها أقوى وأثبت، وكأن الرحالة بها احتاج إلى تأنٍ قصير؛ لمعرفة نوع البناء والتثبّت منه، في حين أنه كان في غنى عن هذا التأني عندما لم يستخدمها.

٢: ٢ وصف العمران السكاني

شغل المكان الرحالة، واهتمّوا بوصف عمرانه السكانيّ، لما يوحيه ذلك من أمن واستقرار في نفس كلّ مغترب.

٢: ٢: ١الوصف بالاسم

ظهرت مفردات العمران السكانيّ في خطاب أدب الرحلات، وأظهرت بذلك صورة حيّة للمكان كما في الجدول الآتي:

الاسم	التركيب
٢: ٢: ١:١ (عامر) وما يرادفه	بلد جليل عامر آهل م ١٠٢ عامرة آهلة م ١٠١، ١٠٢، ٢١٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٢٤ آهلة عامرة م ٢٦٧ كبيرة عامرة م ٢٧١، ٣٢٩، ١٢٨ عامرة جيدة م ٢٧٤ لطيف عامر م ٣٢٨ عامرة آهلة ص ٥٤، ١٦٧ صغيرة عامرة ص ٦١ عامرة م ١٠٢، ٢٥٧، ٢٤٧، ٢٥٨، ٢٨٨، ٢٥٢، ٣٢٥، ٣٢٧،

(1) انظر اللغة والخطاب والإجراء، روبرت، ص ٣٠٦- ٣١٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

	عامرة ص ٤٥، ٣٦، ٣٣، ٣١، ٣٥ عامرة منيعة مسكونة ص ٣٦ عامرة بالأهل جداً ص ٤٦
٢:٢: ١: ٢ **(كثير) وما يرادفه**	شبه مدينة عامرة م ٣٠٢ كثيرة الأهل ص ٧٧، ٧٨، م ٣٦٠ خلق كثير م ٢٤٨ قرى كثيرة س ١٣٣ تامة العمارة ص ٧٨ شديدة العمارة م ٢٥٢ جيد الأهل م ٢١٤
٢:٢:٢ الوصف بالأداة	
الأداة	**التركيب**
٢: ٢: ٢: ١ (في)	في غاية العمارة م ١٥٠
٢: ٢: ٢ (ليس)	ليست بعامرة ص ١٦٨
٢: ٢: ٣ (لا)	فلا عمارة فيها ع ٧٣

وصف أدب الرحلة الواقع – كما بينا– وسجل أحداثه ومظاهره، بالتركيز على مشاهداته البحتة، وكانت ذاته المحور الأول في هذا الوصف، فوصف السكان والعمران يوحي بنفوس أصحابه الحركة والحياة، ويدفع المتلقي للمشاركة في هذه الحياة، فيرسم له صورة مجتمع كامل، بلفظة واحدة ومرادفاتها، ويجعله يأنس الرحلة، ويشعر بأحداثها المكتوبة وغير المكتوبة، فيعطيه مساحة خاصة من التخيّل، واستكمال الأحداث بما يراه مناسباً.

استخدم الرحالة مفردة (عامر) ومرادفاتها مثل: (آهل، مسكون، كثير الأهل)؛ لبيان عمران الأماكن المرتحل إليها بالناس مع الإشارة إلى بعض الملامح الأخرى، كالكبر، والصغر، والمناعة، وحسن الأهل وكثرتهم. كما أشاروا إلى العمارة المادية أيضاً ويبدو الأمر

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

في قولهم مثلاً: "قرى كثيرة"، بيد أن العمران السكاني كان له الأثر الأقوى في الوصف من العمران المادي، فالاغتراب يجعل الرحالة باحثاً عن أهل، والتنقّل بين الطرق يحبّب إليه رؤية الخلق.

تجلّى الاهتمام بالعمران السكاني بالتكرار لمفردة (آهل/ مأهول) وما تشير إليه، ففي هذا التكرار من الصناعة اللفظية اختيار متعمّد للفظة تثبت الطمأنينة في حروفها، وتتناغم جرسها، يجعلها كاللؤلؤة المنتقاة[1] قبل نظمها في سياقها، فينتهي الرحالة إلى غايته القصوى في اختيار الألفاظ، ووضعها في مواضعها اللائقة بها.

إنّ أبسط قاعدة للتكرار أنّه في حقيقته إلحاح على وجهة هامّة في العبارة يعنى بها الكاتب أكثر من عنايته بسواها، وهذا القانون البسيط يسلّط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيّة قيّمة، تفيد في تحليل نفسيّة كاتبه[2]. فكانت المفردة السابقة مفتاحا من مفاتيح أدب الرحلات وخطابه، إذ لم تحلّل نفسيّة رحالة معيّن، بل هي دالة من دوالّ الترحال والتنقّل، وقصد من مقاصده، وهدف يُرتجى لكلّ رحالة يبحث عن الأهل والعمران.

٣: المظهر السياسيّ

بدا المظهر السياسيّ في خطاب أدي الرحلات، فوصف الرحالة حصانة البلاد ومناعتها، كما يبدو فيما يأتي:

([1]) انظر المثل السائر، ابن الأثير، ١/ ١٦٣- ١٦٥.

([2]) انظر قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ص ٢٧٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- YarmoukUniversity

١:٣ الوصف بالاسم

جاء الوصف مستخدماً مفردات الحصانة في تراكيب اسميّة تثبت وجود الحصانة، وتظهر اهتمام الخطاب بأمرها، ويبدو الأمر في الجدول الآتي:

الاسم	التركيب
٣: ١: ١ (حصن) وما يشتق منه	صغيرة محصنة بباب واحد م ٢٧١ حصينة م ٣٠٣، ٣٥٧، ص ٣٤ حصينة الجدار م ١٠٠ حصينة القصور م ٣٦٠ محصنة بثلاث حيطان م ١٠٠ حصين م ١٠٠، ١٤٦، ١٠٢ حصن م ١٠٠ صغيرة حصينة م ١٠١ محصنة م ٢٥٦، ٣٦٠ محصنة بالقلاع ص ١٧٤ غير محصنة م ٢٦٦ كبيرة محصنة م ٢٧٥ حسنة الحصن م ١٠٠ محكمة الحصن م ٢٦٥ حصن صغير ص ٤٧، ٣١
٣: ١: ٢ (منيعة/ مسوّرة)	حصن منيع ص ٣١ منيعة ص ١٥٣، ٣٦، ع ٦٠ منيعة جداً ص ٧٣ مسوّرة ص ١٧٨، م ٢١٨

٢:٣ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
٣: ٢: ١ (لـ)	له/ ها حصن م ١٠٣، ٢٦٨، ٣١٦ لهم حصن عجيب م ٢٦٥

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

	لها سور حصين ص ١٧٥
٣: ٢: ٢(في)	في وسطها حصن هـ ١٧٢ فيه حصن ع: ١٦٧، ٣ مرات
٣: ٢: ٣ (من)	حصن من طين ، ص ٦١ السور من طين ص ١٥٦
٣: ٢: ٤ (على)	عليها حصن منيع م: ٩٧، ١٠١، ١٧٢، ١٩١ عليه حصن من الطين م ١٠١ عليها حصن م ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٤٨، ٣٢٥، ٢٥٥، ٢٥١ ص ١١٨، ١٢٤ عليها حصن عظيم م ٣٦٠ عليها حصن حسن على ساحل بحر الروم صغير بـه نخيل ص ٤٧
٣: ٢: ٥ (على + من)	عليها حصن من الحجارة م ١٩٥ عليها حصن من آجر م ٣٠٢
٣: ٢: ٦ (لا)	لا حصون لهم هـ ٤٤
٣: ٢: ٧ (ليس)	ليس عليها سور ص ٧٧

للغة بعدان متآخيان يتمثّل الأول بالفرد في عالمه المستقلّ ظاهرياً، ويتمثّل الثاني بالمجتمع في عالمه المكوّن من عوالم، يسير كلّ واحد منها في فلك نفسه، وفي فلك غيره[1]. تصوّر المفردات اللغوية في هذا النسق البعد الثاني، وانعكاسه في البعد الأول، فالرحالة ينتقل في عالمه الخارجي، ويبقى مقيّداً في عالمه الداخلي، تحكمه نزعة البقاء والحرص عليها، فكان يرى الحصانة في عيون أفراد المجتمعات التي يزورها؛ لترتد الرؤية في فلكه هو، فتعكس صورة البقاء في عينيه.

---

(1) انظر اللسانيات، سمير استيتية، ص ٦٩٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجد الرحالة في القرن الرابع الهجري الأمن السياسي في مفردات الحصانة والمنعة، فاستعذبها لما لها من تأثير في نفسه وإيحاء يكسبها سعة وامتداداً أكثر من دلالتها الضيّقة المحدّدة، وكأنّه خلق نوعاً من التوافق بين هيكلها اللغوي العام، وانعكاس ذلك في ترحّله وتنقّله، كثّف فيها معنى الإحساس بالأمن بشكل كبير، فعمل هذا الأمر على إثراء المعنى، وتنميته في البناء السطحي للخطاب، وامتداده الدلالي للمفردات المكرّرة.

ظهرت مفردات الحصانة والمنَعة بصور لغوية مختلفة، فعكست دقّة ملاحظة الرحالة لهذا الأمر، وشدة انتباهه إليه، وبدا ذلك وفق النمطين الآتيين:

١- ذكر المفردة (حصن) وما اشتق منها أو رادفها صفات مثل: (حصين، محصن، منيع)، وتمثل التقابل الوصفي أثناء هذا الوصف كمقابلة مساحة المكان المحصن في:

(صغيرة محصنة) ← (كبيرة محصنة).

ومقابلة هيكلة الحصن ونظامه في:

(محصنة بثلاث حيطان) ← محصنة بالقلاع

٢- ذكر الحصون في الأماكن المرتحل إليها، وبيان متانتها وقوتها بالدرجة الأولى مثل: (حسنة الحصن، حصن منيع)، فوصف الحصن بالاسم تقديماً وتأخيراً كما ظهرت هذه القولبة فيما سبق.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كان الوصف بالأداة هو الغالب على هذا النسق التركيبيّ، إذ تبدو قولبته فيما يأتي:

١- الاهتمام بوجود الحصن وحسب، كقول الرحالة: (له حصن، فيه حصن، عليها حصن).

٢- وصف نوع الحصن مثل: (حصن من طين، عليها حصن من الحجارة).

٣- وصف قوة الحصن مثل: (لهم حصن عجيب، عليها حصن منيع).

٤- المفاضلة بين طرفين إثباتاً ونفياً مثل:

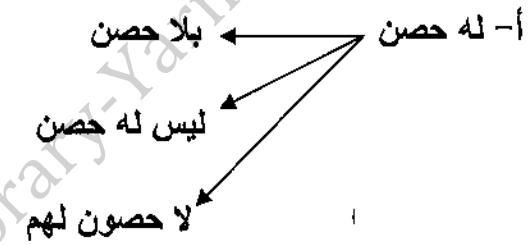

ب- مسوّرة ← ليس عليها سور

بدا الإثبات إيجاباً، وبدا النفي سلباً؛ للأمن والاستئناس بالمكان المرتحل إليه.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٤: المظهر الاقتصادي

وصف خطاب أدب الرحلات الأسواق، وعرض مساحتها، وأشكالها، وأوصافها، كما يبدو في التراكيب اللغويّة الآتية:

٤ : ١ الوصف بالاسم

اتّضحت معالم السوق، وبدت ملامحه وصفاً اسميّاً، وفعليّاً، واستُخدمت الأداة لإثبات وجودها، أو عدمه، كما يبدو في الجدول الآتي:

الاسم	التركيب
٤: ١: ١ (حسن) وما يرادفه	حسن الأسواق م ١٤٧، ٢٦٩، ١٦٢، ٣٠١ كل أسواقها حسنة م ١٢٥ سوق/ أسواق حسنة م ١٧٢، ٣٠٣ أسواقهم حسنة م ٢٦٩ جيدة الأسواق م ٢٥٨ مظلّلة الأسواق م ٣٢٥ أسواق القصبة مغطاة طريفة م ٢٥٢
٤: ١: ٢ (مساحة السوق)	سوقها صغير م ٢٧٦ سوقها كبير عامر م ٢٥٦ أسواق فسيحة م ٢٧٢ فسيح الأسواق م ٣٢٦

٤: ٢ الوصف بالفعل

الفعل	التركيب
٤: ٢: ١ (ظلّلت-تظلّل)	أسواقها قد ظللت مجتمعة م ٣١٥ الأسواق تظلل في الصيف م ٢٧٢
٤: ٢: ٢ (تقوم-التفت)	سوق تقوم في كل مديدة ف ١٦٤ يقوم سوق البحور ع ١٦٧ قد التفت الأسواق بجامعها م ٢٧٥

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٤: ٣ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
٤: ٣: ١ (في)	فيه سوق عامر م ٢٥١ فيها الأسواق والجامع م ٢٤٤ في المدينة أسواق م ٢٤٨ أسواقها في مدينتها ص ١٦٧ أسواقها في ربضها ص ١٧١
٤: ٣: ٢ (ل)	لها سوق عامر م ٣٦٠، ٢٥٥ لها سوق ص ١٧٥
٤: ٣: ٣ (بـ)	بها أسواق حارة م ٢٦٣ بها سوق حسن م ١٠٣
٤: ٣: ٤ (على)	وهي أسواق على غاية العمارة ص ١٤٠ على هذا النهر موضع سوق ف ١٦٤
٤: ٣: ٥ (لا)	لا أسواقها بالواسعة العطيفة م ٣٠٣ بلا أسواق م ٣٢٧ لا ترى أحسن من سوق الحنطة بها م ٣٥٢

اعتمد الوصف في هذا النسق الترادف والتناظر- كما شاع ذلك عند الرحالة- فالأسواق حسنة وجيدة و فسيحة وعامرة. فالبنية التأثيرية للخطاب تقوى بترادف النظائر، هذا وإن أخذ الترادف شكلاً من أشكال المجانسة أيضاً، فتتجانس أوصاف هذا النسق التركيبيّ وتتجاور مشكّلة نمطيّة واضحة، في تركيب الوصف وصياغته. تتمحور النمطيّة وفق قولبة الوصف التي تبدو كثيراً في الرحلات، بتقدم الوصف أو تأخيره، كما استُخدمت في التراكيب السابقة، فتبدو مفردة "السوق" مركز الوصف كما في الآتي:

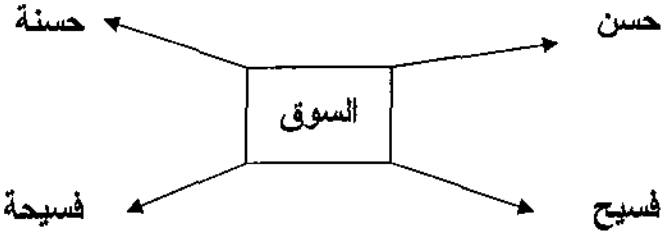

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

أصبح الترتيب القبليّ والبعديّ للوصف طابعا عامّا في خطاب الرحلات، فيرى به الرحالة ما يريد إيصاله لمتلقي خطابه، يُعلي به شأن مكان على آخر، ويُظهر به جمال مظهر على آخر في المكان نفسه، أو بين الأمكنة المختلفة.

استُخدم الفعل أيضاً في هذه النمطيّة أيضا كالتوضيح الآتي:

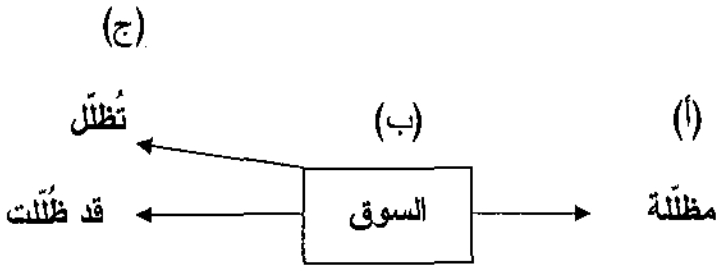

(أ + ب) ≠ (ب + ج)

التكرار التجاوريّ بين مفردة السوق ووصفها يمكن أن يؤثّر في مجمل الملامح الصوتية الملائمة؛ ليؤدي تجانساً صوتياً بدلالة مغايرة من وصف لآخر، تتنوّع بالثبات الاسميّ إلى ثبات المضيّ إلى استمراريّة المضارع.

وجاءت الأداة الظرفية لإثبات وجود السوق في المكان المرتحل إليه كمظهر تقدّم، بتوفيره كلّ ما يحتاجه ساكنوه وزواره، كقول الرحالة:

لها

على هذا + سوق ← **ازدهار الجانب الاقتصادي للمكان**

بها

في

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

للتقديم والتأخير أثره في هذا الوجود، فشبه الجملة المتقدّمة على مفردة (السوق) توحي بما تمتلكه المدينة من مزايا كثيرة، تكون الأسواق جزءاً منها، وليست أهمّها، أمّا تقديم المفردة على شبه الجملة، فيعلي من أهميّة الأسواق للمكان الموصوف، ويجعل منها بؤرة، علاوة على التخصيص المتضمّن في التعريف.

سلّط المرتحلون الضوء على السوق كثيراً في كتبهم، فكشف هذا الأمر عن اهتمامهم بها، ووضعوا في أيدينا مفتاح الفكرة المستوحاة من تكرار اللفظ.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المبحث الثالث: الوصف الإنساني

تنقّل الرحالة في أنحاء كثيرة، فشاهد أجناساً مختلفة من البشر، بدا الاختلاف شكلاً ولوناً ولغة، ولم يقف عند الاختلاف الخارجي فقط، بل تعمّقت رؤيته، وامتدت إلى الجـوهر والدين، والفكر، والمعاملة، ثم إلى تفاعله مع ما يرى، وتأثّره بشخوص المكان المرتحل إليه، بالدرجة نفسها التي أثّرها المكان به.

اهتمّ خطاب أدب الرحلات بوصف الإنسان خلقاً وخُلقاً، جرّاء تنقّله من مكـان إلـى آخر فبدا الوصف بالاسم والفعل والحرف، وفقاً لما يريد الرحالة وصفه، انطلاقاً مـن مبـدأ الثبوتية والتغير، واعتماد التقديم والتأخير في ذلك.

١: الوصف بالاسم

جاءت الأوصاف الاسميّة لوصف المظهرين: الخارجي والداخلي للإنسان كما يتّضح في ما يأتي:

١: ١ الوصف الخارجي

وصف الخطاب الإنسان، بتراكيب اسميّة مكرّرة منها ما دلّ على الهيئة الخارجيّة من شكل ولون ولسان، ومنها ما أظهر التعامل الإنساني، وما يوحيه من دين وعلم وغير ذلك كما يبدو في الجداول الآتية:

١: ١: ١ شكل	١: ١: ٢ لون	١: ١: ٣ لسان
كبار اللحى م ٣١٧	سمر شديدو السمرة ف ١٣٧	ذوو وجهين ولسانين هـ ٤٤
محلقو اللحى ف ١٣٧	ألوانهم سمرة م ٣٩٢	لسان وحش م ٣٥٥
نحيفة أجسامهم م ٣٧٦	سمر ع ١٣١	لسانهم وحش م ٣٩٢
مناظرهم قباح هـ ٤٣	سود الشعر ع١٣١	ألسنة مختلفة ع ١٨

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

جميلة هيئتهم هـ ٤٤		كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير ف ١١٣ كلامهم أشبه بشيء بنقيق الضفادع ف ١١٣

١: ٢ الوصف الداخلي

١: ٢: ١ الدين	١: ٢: ٢ العلم
أهل جماعة وسنة م ٣٢٤	أهل فهم وعلم م ٢٥٣
أهل سنة م ٣٣٩	أهل أدب م ٢٧٥
أهل ..... وفقه م ٢٦١	أهل أدب وبلاغة م ٢٦٧
أهل دين م ٢٦١	قرائح وأدب م ٢٧٥
تشيّع مفرط مع خلق وقرآن م ٣٠١	حذق وفطنة م ٣٢٤
المذهب واحد ..... مع فقه م ٢٧٦	قرائح دقيقة ومجالس أنيقة ومدارس رشيقة م ٢٧٢
كبراء في الفقه وأجلّه في الحديث .....م ٢٩٨	أصحاب عقل وفطنة م ٢٦٥
	أصحاب أدب وحكمة هـ ٤٣
	حكماء م ٢٦٥
	صناعة وحذاقة وتجارة م ٢٧٢
	حذاق في نحت البرام م ٢٧٥
	علماء وسراة وعوام ودهاة م ٣٢٦
١: ٢: ٣ القوة	**١: ٢: ٤ المال**
حزم وهمة م ٣٢٤	أهل تجارات في البر ع ٨٤
بأس وشدة في الحرب م ٢٥٣	أهل يسار وغنى هـ ٤٤
أنصار الحق إذا ما ظهر م ٣٢٩	حرص على جمع المال ع ٨٤
أهل الدولة والظفر م ٢٥٩	سهل عيشهم هـ ٤٤
بأس ومنعة م ٢٧٦	ظاهرو اليسار ع ١٤١
رجال في القتال م ٢٩٨	فقراء ف ١٣٧
أحرار هـ ٤٦	الرخص دائم م ٢٧٦
أنفسهم نبيلة هـ ٤٦	نعمة خصبة طيبة م ٢٦١
	يسار م ٢٦١

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١: ٢: ٥ المعاملة	المعاملة
أهل ضيافة م ٢٥٣	قوم سوء م ٣٤٠
أهل لباقة م ٣٨٩	جفاة رديو المعاملة م ٢٧٦
ظرف ودراية م ٢٦٧	طباع خوارزم كالبربر م ٢٥٤
ظرف ولباقة م ٢٧٢	طبع غليظ وخلق بغيض م ٢٥٥
حفاظ ومودة م ٢٧٢	أكل فاحش وبلد وحش م ٢٥٥
أصحاب مروة ع ١٢٥	أهل طنز وهبل م ٢٧٠
أصحاب همة م ٢٦٥	متهورين هـ ٤٤
مروة م ٢٦١	مثل البهائم ف ١٦٥
حسنة أخلاقهم هـ ٤٤	شبيه أخلاقهم بأخلاق السباع هـ ٤٣
أخلاقهم أخلاق عدلة هـ ٤٦	جافية طرائقهم هـ ٤٣
نسوان مديرات م ٣٢٦	سفهاء هـ ٤٦
	أهل جرأة وغش هـ ٤٦

عنى الرحالة بالهيئة الخارجية للناس الذين يلقاهم في رحلته، فاهتم ببيان إطار عام لأشكالهم، وألوانهم، ولغاتهم، باعتماده سبكاً معجمياً بين المفردات الاسمية (هيئة، مناظر، أجسام، أبدان). ظهرت علاقة شبه الترادف بينها، إذ عُدّ الترادف وشبهه من درجات السبك ومقوماته[١]، فهو نمط من أنماط التكرار، ولم يقصد بها الرحالة إلّا الشيء نفسه معتمداً كل لفظة وما يناسبها من وصف، فالمناظر والهيئة بين الجمال والقبح، أمّا الأجسام والأبدان فغالباً ما يشار إليها بالشكل أو اللون.

(١) انظر لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب محمد خطابي، ص ٢٤؛ نقلاً عن Halliday and Ruqaya Hassan , p ٢٠٣ Cohesion in English

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ظهرت ظاهرة لغوية أخرى في تحقيق السبك المعجمي في هذا الوصف وهي اعتماد المصاحبة المعجمية[1] للمفردات، إذ مثلت المفردات السابقة كلاً تندرج ضمنه المفردات الآتية: (شعر، لحية، وجه، لسان، كلام) وهذه المصاحبة أدخلتنا في سلسلة مرتبة بين الكلّ والجـزء، فحققت بذلك أيضاً سبكاً معجمياً في الوصف أدى إلى التماسك، كما يبدو في الشكل الآتي:

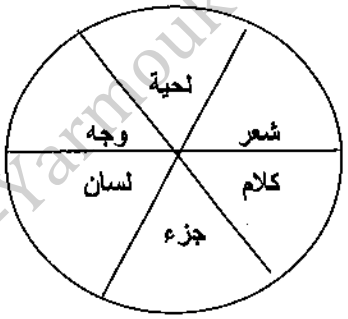

كلّ= (منظر، بدن، جسم، هيئة)

فاللون بين السمرة والسواد، واللسان بين الاختلاف والوحشة، واللحى بـين الوجـود والعدم، ممّا أدى إلى مزاوجة وصفيّة بين رحالة وآخر باهتمامهم بالشيء نفسه، نظراً لتـشابه الظروف المحيطة، كما ويبدو لتأثير الوصف في نفس الرحالة دوره في التقديم والتأخير الذي يسلكه كما في:

نحيفة أجسامهم	= الوصف + مفردة دالة على الوصف الخلقي
جميلة هيئتهم	

(1) المصدر السابق نقلاً عن Cohesion in English, p٢٨٢، أراد هاليدي ورقيـة حـسن بالمـصاحبة المعجمية بيان علاقة رابطة بين زوج من الألفاظ، مثل علاقة التباين وعلاقة الترادف، وعلاقة الدخول فـي سلسلة مرتبة كالكل للجزء والعكس.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وانعكس الأمر في قوله (مناظرهم قباح) عند تأثير القبح في نفس الواصف، فالنحافة بادية منذ الوهلة الأولى للموصوفين، ويظهر الجمال كذلك بعين الرضا، قبل أي تفكير بالهيئة المرئية، أما القبح فاستدعى التأخير الذي أوحى بصمت طويل بين الموصوف والوصف، وكأن الرائي للمناظر فكّر، ودقّق، ثم استاء فجاء وصفه معبّراً عن ذلك.

ويبدو التأثير أيضاً في التنكير والتعريف للمفردات الدالة على الوصف الخلقي كما في:

لسان وحش ≠ **لسانهم وحش**

ألسنة مختلفة ≠ **لسانهم مختلف**

فاللسان من الوحشية والاختلاف ما يستدعي التنكير، فيعلي التنكير من غربة الرحالة إثر غربة اللفظ.

أمّا في الوصف الخُلُقي فتبدو لنا اهتمامات الرحالة أثناء تنقّلهم، باعتماد التكرير المعنوي في التراكيب السابقة، فالهياكل السطحية لتراكيب الوصف الإنسانيّ دلّت في مضمونها على المعاني التي أراد إيصالها، وبدت نظرته جليّة بإعادة المعنى سواء أكان ذلك على مستوى الرحلة الواحدة أم الرحلات المدروسة جميعها.

يأتي تكرار المعنى في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كُرِّر فيه الكلام إما مبالغة في مدحه، أو في ذمه أو غير ذلك[1]، وظهرت مقابلة المدح والذم، باتّخاذ التكرار عند الرحالة في الموضوعات السالفة الذكر، إذ يكيّف العنصر المكرّر بكيفيّة بيئته النفسيّة في واقع المرسل وما يلاقيه، وليس بغريب على العربي

([1]) انظر المثل السائر، ابن الأثير، ٣/٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المتنقّل أن يكون اهتمامه منصبّاً على كلّ من (الدين، العلم، القوة، المال، المعاملة)، فالدين ملاذه الآمن، وفي العلم ما يذلّل التحديات والصعوبات المواجهة، بتواصله مع أهل المكان المرتحل إليه سواء أكان علم أدب وفنون، أم علم مهارة، والمال ظاهر الوصف دالٌّ على حياة مريحة وميسّرة، أمّا القوة فهي مصدر الاستقرار والمنَعة والراحة للمرتحل إليهم أولاً، وللمرتحِل ثانياً.

لم يكتفِ الرحالة بالوصف لما بدا لهم من الأوصاف الإنسانيّة، بل أصبحوا في كثير من المرات أفراداً في المجتمعات التي يزورونها، ينقلّبون من مجتمع لآخر، ويتأثّرون بانعكاس الذات في مرآة الآخر، فيصفون طابعاً عامّاً للمرتحل إليهم، يُؤطّرون فيه صورة لهم، ليطبعوها في ذاكرتهم وذاكرة متلقيهم.

اعتمد الرحالة في رسم صور التعامل الإنساني على مبدأ إيهام التضاد، الذي يُعَدّ من وسائل السبك المعجميّ[1]، إذ لم تكن تراكيب الوصف مطابقة بالمعنى الحرفيّ المعجميّ، بل تدخل في باب الطباق، وتشير إليه.

بدا ذلك في الأزواج المتقابلة الآتية:

(أ) أهل + ضيافة / لباقة ≠ أهل سوء/ هبل/ غش

(ب) ظرف + دراية / لباقة ≠ طبع غليظ كالبربر

(ج) أصحاب + همة / مروة ≠ أخلاق البهائم / السباع

(د) كُلٌّ عفيف ≠ بلد فاحش

(هـ) مبغضين للشر ≠ مستهترون بالنبيذ

([1]) البديع في البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، ص ١١٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عدّ ابن الأثير المطابقة من باب التناسب بين المعاني وقال: "سُمّي هذا النوع (المقابلة) لأنّه لا يخلو الحال فيه من وجهين، إمّا أن يقابل الشيء بضده، أو يقابل بما ليس ضده"[1]، "وفي الثاني من المناسبة والتقارب ما يجعله متقابلاً"[2]، فقابل الرحالة مثلاً الضيافة واللباقة بالسوء، والسوء ليس ضداً لهما، وإنما هو ضد الحسن، إلا أنّه لمّا كانت الضيافة واللباقة من باب المعاملة الحسنة، أعطى هذا التقابل صورتين متغايرتين للأقوام الموصوفة، في كلتا الحالتين، وكذلك الحال في الأزواج المتقابلة الباقية.

وبالنظر إلى المقابلة الأخيرة نجد نظرة العموم والخصوص بادية في الوصف، فخطاب (كلّ عفيف) هذا عموم يقابل خطاب (بلد فاحش). وما اندرج أسفل العمومين أعلاه يُعد خصوصاً لكل عموم، فتكون العفة أساس بغض الشر، ويؤدّي الفحش إلى الاستهتار بشرب النبيذ.

٢: الوصف بالفعل

وُظّف الفعل في إظهار الوصف الإنساني خلقاً وخُلقاً، فظهر الاهتمام في هذا التراكيب بالحدث أكثر ممّا سبق، علاوة على دلالة الزمن. جاءت الأوصاف ذات دلالة ثبوتيّة في صيغة الماضي، وذات دلالة استمراريّة في صيغة المضارع، يبدو ذلك في الجداول الآتية:

١:٢ الوصف الخارجي

٢: ١: ١ الشكل	٢: ١: ٢ اللون	٢: ١: ٣ اللسان
عظمت أجسامهم ع ٣٨	ابيضت ألوانهم ع ٣٨	ثقلت ألسنتهم ع ٣٨
استرخت أجسامهم ع ٣٨	احمرت أعينهم ع ٣٨	
غلظت ولانت فقارات ظهورهم ع ٣٨		
صغرت أعينهم ع ٣٨		

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ٣/ ١٧٢.

(٢) السابق، ٣/ ١٨٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بعضهم يحلق اللحى وبعضهم يفتلهـــا مثـــل الذوائب ع ١٣٢ يحلقون لحاهم ف ١٣٨		

٢: ٢ الوصف الداخلي

١:٢:٢ المعاملة
يرجعون إلى مروة ع ١٢٣
يسمون إلى معالي الأمور ويتنافسون فيها هـــ ٤٣
يحمون الغرباء م ٣٩٠
يجلّون الشريف ويرحمون الضعيف م ٢٩٨
يشغبون إلى الأمراء م ٢٤٩
حسنت سيرتهم هـــ ٤٦
ظهر خيرهم هـــ ٤٦

٢:٢:٢ العادات

٢: ٢: ١:٢ عادات في الشكل	٢: ٢: ٢:٢ عادات في المضمون
يلبسون القلانس ف ١٥٩	يتبركون بعواء الكواكب جداً ويفرحـــون بـــه ف ١٥٦
يلبس الخطباء الأقبية والمناطق م ١٣٦	يقتلون السارق كما يقتلون الزاني ف ١٥٦
يكثرون التنعّل وتسطيل العمائم م ١٣٥	يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفر م ١٣٠
يلبسون الأردية كل عالم وجاهل م ١٨٢	يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ع ١٣٢
يصنعون زلابية في الشتاء من العجين غيـــر مشتبكة م ١٨٣	يسيرون في البحر حتى ربما غـــاب أحـــدهم عامة عمره في البحر ع ٨٣
يأكلون لحم التيس م ١٩٠	يتباهون بالملك والمكاثرة في الماء ع ١٦٢
يأكلون القمح ف ١٣٨	يظهرون جميع أمورهم هـــ ٣٦
يعملون من الشعير حساء يحسونه الجـــواري والغلمان ف ١٥٩	يخفون أمورهم في أكثر الأمـــر ويـــسترونها هـــ ٣٦
يحلون ويرتحلون ف ١٢٢	يشاكلون الأسد والشمس هـــ ٤٤
يمشي الرجال قدام الجنازة والنسوان خلـــف م ٣٦٣	يؤخرون الظهر ويعجلون العصر ويستقرون

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ينامون على السطوح وهم في تعب م٢٧٧	بالجامع م ١٣٧
يحبون رؤوس السمك م ٢٠٠	يختمون في رمضان في الصلاة ثم يدعون
يجعلون على جنائز النساء قباباً عالية وحشة	ويركعون م١١٤
م ١٣٦	يطفّفون ويخسرون ويفسقون م ١١٧
يلبسون الأردية كل عالم وجاهل م ١٨٢	
يمشون خلف الجنائز يسلون الميت م ١٨٢	
يخلو أسواقهم أيام الجمع م ١٩٩	

بدا الوصف بالفعل دالا على الصفات نفسها التي ذكرت في الوصف بالاسم، بيد أنّها اتّخذت هنا منحى آخر عند المسعودي الذي ربط الهيئة الشكليّة بمناخ المكان، إذ قال: "وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم، فاسترخت أجسامهم وغلظت ولانت فقارات ظهورهم، وخرز أعينهم" ع ٣٨، وقال "صغُرت أعينهم، لاجتماع الحرارة في الوجه" ع ٣٨ وقال:" فإنّهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة، وقلة الرطوبة، فاسودّت ألوانهم، واحمرّت أعينهم، وتوحّشت نفوسهم، وذلك لالتهاب هوائهم وإيراد الأرحام في نضجهم، حتى احترقت ألوانهم، وتغلغلت شعورهم، لغلبة البخار الحار اليابس" ع ٣٨.

وهذا التفسير العلمي يلائمه الوصف بالفعل، فيتحقّق الحدث، ويرتبط بالزمن، وفقاً للمناخ المتغيّر من مكان إلى آخر، وربما يتغيّر المحدث أيضاً، فيزول التأثير، أو يقلّ وفقاً لذلك.

وفي وصف معاملات الناس بعضهم بعضاً في الأماكن المرتحل إليها يختار الرحالة منها ما يهمّهم، وما ينعكس عليهم بالنفع والفائدة مثل خطاب: "يحمون الغرباء..... الخ"، ولم يكثروا منها في هذا المجال من الوصف لملاءمتها الوصف بالاسم، إذ فيها من التأثير ما يثبتها في النفس.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويبدو استخدام الفعل الماضي مناسباً للتعليل، مع التعليل العلميّ الذي لجأ إليه الهمداني عندما قال "حسنت سيرتهم ، وظهر خيرهم، وكثرت حيلهم، ولطف مكرهم، وانكتمت أسرارهم لأجل خفة حركة عطارد وطول اختفائه" هـ ٤٦، إذ يرى في علم الفلك ما ينعكس على الناس وتصرفاتهم، فيقول أيضاً: "وحركات أنفسهم تليق بحركات الكواكب في سرعة وقوفها على الشيء" هـ ٣٦، ويقول: "فهم يشاكلون العقرب والمريخ لذلك....." هـ ٤٨ و "فاستولى عليهم المشتري والحوت فلذلك....." هـ ٤٩.

يتجلّى الوصف بالفعل في بيان عادات الناس المرتحل إليهم وتصرفاتهم، وتنقسم العادات المذكورة إلى الأقسام الآتية:

١- عادات لها أصل ديني، مثل: يزيّنون بعدن السطوح.....، يستقرّون بالجامع....، يقتلون السارق..... الخ.

٢- عادات دالّة على خصوصية طعام أو شراب أو ما شابه مثل: يصنعون زلابية، يحبون رؤوس السمك، يكثرون التنعّل..... الخ.

٣- عادات شخصية عامّة مثل: يظهرون جميع أمورهم، يخفون أمورهم، يذهبون ويجيئون، يحلّون ويرتحلون..... الخ.

٤- عادات غريبة مثل: يسلّون الميت، يسيرون في البحر... يجعلون على جنائز النساء قباباً.... الخ.

٥- عادات سيئة مثل: يتبرّكون بعواء الكواكب، يحرقون أنفسهم، يطفّفون ويخسرون....الخ.

لازم زمن المضارعة الحديث عن العادات، لاعتمادها الذاتيّة، وإن ميّزت جماعة ما، إلّا أنّها تتغيّر بتغيّرات كثيرة، تتعرض لها الجماعات، وتختلف لعوامل نفسيّة مكانيّة، ممّا جعل

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الهمداني يعلّل اختلافاتها جغرافيّاً، كما فعل المسعودي. واستخدام الفعل المضارع هنا دليل قويّ على احتماليّة الأمر، لذلك لم يُجزم الأمر، بل ورد مثلاً "في أكثر الأمر....، فهم أكثر .....". ممّا أدّى بالرحالة إلى الاستنتاج، ثم ربط الأمر بالمكان فلكيّاً وجغرافيّاً، عندما فسّر الوصف وفقاً للمكان في مثل: "ومن كان منهم بالجملة إلى ناحية المشرق، فهم أكثر تذكّراً وأقوى نفساً، ويظهرون جميع أمورهم، أمّا الذين يميلون إلى ناحية المغرب، فهم أكثر تأنيثاً، وأنفسهم ألين، ويخفون أمورهم في أكثر الأمر، ويسترونها" هـ ٣٦.

٣: الوصف بالأداة

استخدم خطاب أدب الرحلات الأداة في الوصف الإنساني، لإظهار سمات عامّة للموصوفين سواء أكان الأمر لإثبات سمات معيّنة أم نفي وجودها، يبدو ذلك في الجداول الآتية:

١:٣ الوصف الخارجي

٣: ١: ١ الشكل	٣: ١: ٢ اللون	٣: ١: ٣ اللسان
الغالب على خلقتهم نحافة الخلق وخفة الشعر ع ٨٣ الغالب على خلقة الديلم النحافة وخفة الشعر ع ١٢١ الغالب على خلقهم النحافة وخفة اللحى والضخامة ع ٦٣ الغالب على أهلها وفور الشعر واقتران الحواجب ع ١٢٤ ٠٠٠٠في غلظة م ٢٤٤ ٠٠٠٠لهم جمال م ٣٢٦	الغالب على خلقهم صفرة اللون ع ٦٣ الغالب على خلقهم صفرة وسمرة اللون ع ٨٣ الغالب على٠٠٠٠٠٠ حمرة م٢٤٤	ليس لسانهم بحسن م ٣١٧ لا يفهم لسانهم م ٢٢٦

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢:٣ الوصف الداخلي

٣: ٢: ١ الدين	٣: ٢: ٢ العلم
لا ديانة م ٢٩٩	لا علم م ٢٩٩
لا دين م ٣٤٠	لا يعرفون القراءة ف ١٦٣
لا يخلو المذكر من فقه	لا يرجعون إلى عقل ف ٢٢
لا مذكر يفقه العوام م ٣٧٦	لا عالم أديب م ٣٥٥
لا فقيه إمام م ٣٤٠	لا يخلو الرئيس من علم م ٣٢٦
لا مذكر حكيم م ٣٤٠	لا يكلفون أهل العلم بتقبيل الأرض م٢٩٢
لا لخطيبهم خضر ولا لباقة م ٢٧٣	في الأدب أئمة وأعلام م ٣٠٠
لا يدينون الله بدين ف ٢٢	لهم دهاء ومكر وتعمق في الرأي والنظر هـ ٤٦
لا يعبدون شيئاً ف ٢٢	لهم ذكاء وفطنة م ٣٨٩
الغالب على	لهم وعقل وفضل م ٣٢٦
استقامة الحال والفقه ع ٨٤	
٣: ٢: ٣ القوة	**٣: ٢: ٤ المال**
لهم من العدة والبأس والقوة بالرجال والدواب	الغالب عليهم اليسار ع ٨٤
والكراع ما يستصعب على السلطان أمرهم ع ٧٢	الغالب على أهل الجبال
لهم بأس على الغُزيّة ومنعة ع١٧٠	كلها اقتناء الأغنام ع ١٢٠
ليس لمحتسبهم هيبة ولا صرامة م ٢٧٣	على حسن حال ويسار ع ٧٢
لا ترى لقرائهم ولا لمشايخهم	الغالب على أهل هذا القسم الغنى والجدة ع ٤٥
هيبة ولا لمذكرهم قيمة م ٣٣٨	في أعناقهم أطواق من ذهب وفضة ف ١٧٦
	في شقاء ف ١٢٢

٣: ٢: ٥ المعاملة

٣: ٢: ٥: ١ وصف إيجابي	٣: ٢: ٥: ٢ وصف سلبي
لهم رسومات كثيرة حسان م ١٣٦	لهم دهاء وتجارب ع ١٢٣
لهم مروة م ٣٨٩	لهم عقارب وهم في ذاتهم عقارب

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لهم لباقة وإسناد ودراية م ٢٦١	م ٢٦٦
فيهم رفق بالغرباء م ٣٦٠	لا ترى لهم لباقة م ٢٩٩
فيهم وطاء وظرف ولطف وإحسان م ٣٠١	فيهم نفخ وعجب ومراء م ٢٤٩
الغالب على ٠٠٠٠٠ استقامة الحال ع ٨٤	لا ترضى طباعهم م ٢٢٦
لهم في الخيرات رغبة وفي الأعمال حسبة م ٢٣٧	الغالب عليهم الغباوة والجفاء ع ٣٧
لهم ٠٠٠٠٠ معروف وصدقة م ٣٨٩	الغالب عليهم أهلها العبث والفساد ع١٥٦
	الغالب عليهم أهلها اللصوصيةع ٩٩
	في عداد البهائم ع ٣٨
	لا وقت طيب ولا قلب سليم م ٣٧٦

٣: ٢: ٦ العادات

٣: ٢: ٦: ١عادات في الشكل	٣: ٢: ٦: ٢عادات في المضمون
لا يمدّ أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة ف١٤٦	الغالب على....
لا تبكي النساء على الميت ف ١٧٠	سرعة الكلام والعجلة ع ١٢٤
لا يكثرون من أكل اللحم م ١٩٩	الغالب على .....
ليس لهم زيت ولا شيرج ولا دهن بتة ف ١٥٣	العجلة وقلة المبالاة ع ١٢١
لا يقطعون البكاء سنتين ف ١٧٠	لا يزوجون إلى غيرهم م ٣١١
لا يتبايعون بالدنانير ع ١٠٠	لا يطربون في الأذان م ١٣٦
لا يستتر بعضهم من بعض ف ١٦٢	لا يزنون بوجه ولا سبب ف ١٦٢
	لا يتورّع مشايخهم عن شرب الخمور ولا نساؤهم عن الفجور م ١٩٤

تجلّى الخطاب في هذا النسق الوصفيّ وسيلة لتسجيل المشاهدات عبر أدلة بصرية، باعتماد القالب العباري المصاغ مثل: "الغالب على.....". وبدا اللون والشكل بصرياً، واتّضحت اللغة سماعياً أيضاً، فأدرك الرحالة ما يريدون وصفه، من هيئة سكان المكان المرتحل إليه، واعتمدوا الواقعية التسجيلية، في وصف الواقع، وتسجيل أحداثه.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وصفوا المظاهر المادية، وكان وصف الهيئة الخارجية أهم المشاهدات التـــي وقـــف عندها الرجالة، فاعتمدوا آلية الصورة التوضيحيّة لذلك. فالمال مثلاً ظهرت علامات وجـــوده ونتائج ذلك على المجتمع وأهله، والمعاملة إيجاباً أو سلبياً من العموم ما يجعلها تلائم التغليب، فجاءت الصور التوضيحيّة معمّمة غير مخصّصة، يتحكم بها حسّ الرحالة وأذواقهم.

استخدم الرحالة أسلوب التقابل، كما اعتادوه في التعبير الوصفيّ، فجاء الحرفان (في، لـــ) مقابل (لا، ليس) في إثبات الصفة، أو نفيها، كما يبدو في الثنائيات الآتية:

١- **لهم** عقل، فضل، ذكاء، فطنة ≠ لا علم/ عالم، عقل/ قراءة

٢- **لهم** في الخيرات رغبة، في الأعمال حسبة، معروف وصدقة ≠ لا دين/ يدينون، يعبدون، فقيه/ مذكر

٣- **فيهم** رفق بالغرباء، ظرف، لطف، إحسان ≠ لا ترى لهم لباقة، ترى طباعتهم

٤- **لهم** لباقة، دراية ≠ لا ترى لهم لباقة / مروة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تبدو الأزواج المتقابلة السابقة معتمدة شبه التضاد، باللجوء إلى المقابلة في المعنى عموماً لا اللفظ بشكل خاص، بين كل زوج على حدة، وبين الأزواج في الجهة الأولى وما يقابلها في الجهة الثانية، كما لجأ الرحالة إلى شبه الترادف في رسم الصورتين إيجاباً وسلباً، وكأنهم يقرّبون الوصف لمتلقيه، ويشركونه وإياهم في التأثير، فيشعر بحسن القوم، أو سوئهم. في عملية التلقي هذه.

ساهمت عملية التلقي في رسم صور توضيحيّة للموصوف، وجعلته في حضور قريب من المتلقي، فيسهل عليه تصوّره والإحساس به كما يريد الرحالة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الفصل الثالث

آليات الخطاب في أدب الرحلات

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

آليّات الخطاب في أدب الرحلات

استخدم خطاب أدب الرحلات الوصف، فما خرج الرحالة من دياره إلّا لأجله، وما استطاع أن ينقل ظاهر رحلته وخفاياها إلّا به، كان يتكئ على آليات كثيرة تناقلها الرحالة، وتداولوها من شخص إلى آخر، واتخذوها وسائل لنقل الأحداث وبثّها، فأصبحت تعابيرهم اللغويّة واستعمالاتهم النحويّة مخصّصة ومحدّدة، يستطيع متلقيها أن يتصوّرها، ويردّها إليهم.

جاء الشكل اللغوي في خطاب أدب الرحلات وسيلة للتعبير عن الموصوف، فتفاعلت الألفاظ مع المعاني لإيصال مطلب الرحالة، ولم يتفق الرحالة على مطلب واحد في رحلاتهم المختلفة، فكلّ رحالة يفضّل شكلاً على آخر، ويميل إلى استخدام أسلوب على آخر، انطلاقاً من ذاتيّة الوصف أولاً وأخيراً، وينبغي لمحلّل الخطاب أن يهتمّ بدراسة بيانات ناتجة عن استعمالات حقيقية للتعابير اللغوية[1]، كما ينبغي أن يعمل على تحليل اختلافات الشكل اللغوي بين مرسل وآخر، وأهداف ذلك ومراميه، وما له من تأثير في متلقي الخطاب.

محلّل الخطاب إذن "يعالج مادته اللغوية بوصفها مدوّنة "نصاً"، لعملية استُعملت فيها اللغة أداة تواصليّة، للتعبير عن المعاني وتحقيق مقاصد الخطاب. وانطلاقاً من هذه المادة يسعى المحلّل إلى وصف مظاهر الأُطر، في الإحداثات اللغوية التي يستعملها الناس، لإيصال تلك المعاني والمقاصد"[2]، فالخطاب لم يأتِ من فراغ ولا يخصّ ذاتاً مفردة ينبثق منها، وإنّما يتشكّل في إطار واسع يجتمع فيه أنماط كثيرة من بنى ثقافية، ونفسية، واجتماعية، ومعرفيّة.

([1]) انظر تحليل الخطاب، براون و يول ، ص ٣٢٧.

([2]) المصدر السابق، ص ٤٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وظّف أدب الرحلة تراكيبه اللغوية، للتعبير عن (الأنا) والموصوف، وصوغ صورة واحدة منهما، يحمّلها حركة نسقيّة تعلي مكانة (الأنا) والموصوف، وتؤسّس مبدأ اشتراك بينهما حيناً، وتنزع إيحاء التواصل، فتنفي دلالة إيجابيّة عن الموصوف حيناً آخر.

جاء هذا الوصف في بنى لغوية عادية مألوفة ، إلّا أنّ تكرارها في أدب الرحلة أعطى وجودها مساحة من التأثير، وخلق مواقف إدراكية في فهمها.

أوجد اقتران (الأنا) بالموصوف شبكة علاقات تجدها في خطاب الوصف، وتحمل رصيدا نفسيّاً في تأطير نوعين من الحضور للموصوف، يبدو ذلك في تكرير تركيبين من شأنهما أن يُظهرا الموصوف، ويسلّطا الضوء عليه، يتمثّل التركيبان في نمطين هما:

١- نمط من التراكيب التفضيليّة يقارن بين الموصوف وغيره، فيجعل له حضوراً لا يُضاهى، ويظهره بهيئة لا مثيل لها، وذلك كقول الرحالة : (أفضل، أجمل، أكبر، أزهى، أقدم، أعظم، وهكذا٠٠٠٠)

٢- نمط من التراكيب الاستدراكيّة يظهر الموصوف بحالتين متضادتين، فيصف الموصوف بوصف ما، ثم تستدرك ما يخالفه، وذلك في الوصل العكسي بـ (إلّا أنّ، وغير أنّ، وهكذا٠٠٠٠)

جعل الرحالة النمطين السابقين بؤرة وصف، يعبّر بهما عن المعنى في نسق وصفيّ، يشيع في اختياراته، ويؤدي وظيفة تواصليّة، ويحمل المعنى ويخرجه من وحدة لغوية في طور الاستعمال؛ لينتج معنى يؤديه أسلوب وصفيّ، يعبّر عن الموصوف الذي طالما شغل الرحالة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جاء النمطان المذكوران للتعبير عن الأهداف الدّلاليّة الكامنة في الخطاب، إذ إنّ الوصف بهما يقدّم إخباراً أو إعلاماً عن الموصوف، بيد أنّه يحمل في ثناياه معاني وأفكاراً معينة[1]، ويُسهم هذان النمطان أيضاً في تماسك الخطاب وتحقّق نصيّته، هذا التماسك قد نادى به هاليدي ورقية حسن، وبيّنا أن تحقّقه يتمّ بتعلّق عناصر الخطاب بعضها ببعض، بعلاقات أو أدوات شكليّة ودلاليّة كالإحالة، والتكرار، والحذف، والوصل، وغير ذلك[2].

يهدف التماسك في الخطاب إلى إيصال الرسالة، وتحقيق التفاعل معها، فيظهر بين مكوناتها، على اعتبار أنّه مقوم أساسيّ من مقومات كلّ جملة فيها؛ إذ لا يمكن أن تبنى الجملة دون وجود التماسك. ويأتي الوصف في طليعة الأساليب التي تعمل على تماسك الخطاب، فتجعل الموصوف مرتبطاً بالموضوع كلّه[3]. وللوصف في خطاب أدب الرحلات آليّات كثيرة متّبعة كالتفصيل حيناً والإجمال حيناً آخر، والتكرار بإعادة ألفاظ معينة أو بالمعنى، وكثرة الإحالات الضميرية والروابط الزمانية والتركيبية، وغير ذلك من الآليات التي تجعل النص متماسكاً ومترابطاً.

يُعدّ نمطا المقارنة التفضيليّة والوصل العكسيّ من وسائل التماسك، فهما يعملان على إيجاد علاقات محدّدة بين الموصوفات، فيحققان الربط الذي يكون بين المتفاضلين، والربط بين حالتين متعاكستين للموصوف نفسه، فتتعالق الأجزاء دلاليّاً وشكليّاً.

---

(1) انظر اللسانيات، المجال، والوظيفة، والمنهج ، سمير استيتية، ص ٢٨٢- ٢٨٤، إذ فرّق المؤلف بين الدلالة والإيحاء هدفاً وإجراء ونتيجة.

(2) لسانيات النص، محمد خطابي ص ١٦- ٢١، درس العلماء التماسك النصي (Cohesion) تحت مسميات كثيرة منها (السبك، الاتساق، الترابط) مقابلاً للانسجام (Coherence) أو الحبك أو الالتحام، وكلا المصطلحين يؤديان الهدف نفسه.

(3) انظر اللسانيات، سمير، ص ١٩٨- ٢٠٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

تؤدّي المقارنة وظيفة اتّساقيّة، فيحدث الاتّساق بين عنصرين يقارن الخطاب بينهما، ويحدث تماسك الخطاب بهذه المقارنة[1]، وهي كما عدّها علماء الخطاب من أنواع الإحالة[2]، وذلك بإحالة مفردات مخصوصة في الخطاب إلى ما تدلّ عليه، كالإشارة إلى دلالة عامّة من التطابق أو التخالف بـــ :(يشبه، خلاف ، مثل ٠٠٠٠الخ)، والإشارة إلى دلالة خاصّة كالكميّة بـــ(أكثر، أقلّ،٠٠٠الخ)، والكيفيّة بـــ(أجملّ، أزهى،٠٠٠٠الخ)، فتسهم بذلك بالتماسك الدّلالي للخطاب.

أمّا الوصل العكسي فيقدّم جملة مركّبة تتكوّن من عبارة أساسية بسيطة، وعبـــارة أو عبارات أخرى تعتمد على العبارة الأولى، فيربط بينها. وإنّما يكون ذلك باتباع الطريقة التـــي تربط اللاحق مع السابق بشكل منظّم[3]، فقد يكون ذلك بربط صورتين من صور المعلومـــات بينهما علاقة التعارض[4]، ويكون بأدوات مثل (لكن، وعلى الرغم من، غير أن، بيـــد أن..... الخ). ويقدّم علماء الخطاب تصوّراً دقيقاً لصور الوصل عامة، ويـــذكرون أن التماســـك، أو الترابط النحوي له دلالة تربط كلّ جملة في الخطاب بالجمل الأخرى[5]، إذ تتـــرابط الجمـــل وتتناسق دلاليّاً وبأدوات لفظيّة كأدوات الربط، وأدوات العطف، وأدوات الشرط وغير ذلـــك. فلا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها[6].

---

(1) انظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص ١٩.

(2) المصدر السابق، ص ١٦- ١٧.

(3) المصدر السابق، ص ٢٣ نقلاً عن Cohesion, p٢٢٧ .

(4) النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص ٣٤٦.

(5) انظر نسيج النص، الأزهر الزناد، ص ٤٢ وما بعدها.

(6) عُدّت المقارنة عند بوجراند ضمن معيار الالتحام أو الحبك (Coherence) في ترابط الـــنص، انظـــر النص والخطاب والإجراء، بوجرانـــد، ص ١٠٣، أمّـــا الوصـــل فـــضمن معيـــار الـــسبك(Cohesion) ، ص ٣٠٢/٣٤٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وللمبدع اختياراته الخاصّة إذ يظهر أحد أشكال العلاقات على لغته أكثر من غيـــره، كالعلاقتين المذكورتين آنفاً. وتبرز أدوات وروابط في خطابه تصبغه بصبغة خاصّة، وتؤدّي إلى ترابطه وانسجامه، هذا الترابط أشار إليه الجرجاني، وبيّن ضرورة اتّحاد أجزاء الكـــلام، ودخول بعضها في بعض، واشتداد ارتباط الثاني منها بالأوّل، فتوضع الجملـــة فـــي الـــنفس موضعاً واحداً[1]. وليس "النظم" شيئاً إلا توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، فيمـــا بين معاني الكلم[2]، فتأتي المعاني في تماسك وانتظام لفظي، تتعلّق الألفاظ ببعضها وتـــأتلف، فيقول: "واعلم انّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[3].

سأبيّن في المبحثين القادمين أكثر الآليات التعبيرية اتضاحاً في خطاب أدب الرحلات، وهما آليتا المقارنة التفضيليّة، والوصل العكسيّ، وسأبين تأثيرهما في دلالة الألفاظ.

([1]) انظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، ص ٩٣.

([2]) انظر السابق، ص ٢٥٢.

([3]) السابق، ص ٥٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المبحث الأول: آليّة المقارنة التفضيليّة

تُظهِر الصياغة اللغويّة المعاني ظاهرها ومخبوءها ، ويُؤثّر ذلك في الذاكرة والإدراك الحسّي لمتلقي الخطاب، وتحمل الكلمات والتعابير المستخدمة من مرسلها ملامح ذاته، فترسل ما يريد إيصاله بالدرجة الأولى، قبل إرسال ما تفرضه المواقف عليه. يبدو الأمر جليـاً فـي استخدام أسلوب المقارنة التفضيليّة في خطاب أدب الرحلات بكثرة، إذ للمعاني سـلطة علـى ذاكرة الرحالة إثر ما يجد من طيب المكان وحسنه، فتتشكّل القوالب التفضيليّة، لتقارن بين هذا وذاك، وتعلي مكانة موصوف على آخر.

يبدو التفضيل أسلوباً مناسباً لإدراك الرحالة الحسّي بالموجودات من حوله، ولذلك تراه يستخدم اسم التفضيل، فيعطيه قدرة كافية لوصف ما يرى من الأماكن والموجـودات، وقـد عرّفه النحاة بأنّه اسم مصوغ من الأفعال التي يجوز التعجب منها للدلالـة علـى أن شـيئين اشتركا في صفة واحدة، وزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة[1]. فجاء ترتيب الكلمات على طريقة معلومة، وعلى صورة من التأليف المخصوص، لرسم صورة تفاضليّة، تربط المفردات بسياقاتها، إذ ليس للكلمة معنى منفصل عن سياقها، بل معناها يحدّده السياق الذي تـرد فيـه، ويقوم النحو ببحث العلاقات التي تربط بين الكلمات في الجملة الواحدة، وبيان وظائفها[2]، في سياقاتها المختلفة، من هنا بدا سياق الخطاب في أدب الرحلات ملائماً للتفضيل والمقارنة، إثر المشاهدات العديدة التي يراها الرحالة، ويتسابقون بالمفاضلة بينها، فكلٌ يرى في الوقوف على ما لم يقف عليه غيره مفاضلة خاصة له، قبل أن تكون مفاضلة لموصوفه، وإثبات تفرّد للذات الواصفة يلائم تفرّد الوصف.

([1]) انظر شرح ابن عقيل، بهاء الدين العقيلي، ١٦٣/٢.

([2]) انظر التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، ص ١٢٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم يلجأ خطاب أدب الرحلة إلى التفضيل إلّا وفي نفس منتهجه أهداف يسعى إلى تحقيقها، وفي منظور وصفه إبراز رؤى ومواقف تزداد حضوراً وأهمية، واتّخذ التفضيل وسيلة للتعبير عنها. فعندما يأتي بموصوفين، ليفاضل بينهما، ينشئ صيغاً خطابية خاصّة ، ويربط الوصف بمعنى عام، من شأن هذا المعنى أن يتعلّق بكلا الموصوفين، يكون الوصف موجوداً في العنصرين المفاضل بينهما، بيد أنّه يتعلّق بموصوف دون آخر، ويختصّ به ؛ وذلك بزيادة الوصف في عنصر على آخر سواء أكان ذلك إيجابا أم سلبا، فترجح كفة الموصوف المفضّل، ويتضح المعنى العام المقصود بالوصف، ويثبت باقترانه به وحده ، فيصبح بذلك بؤرة الوصف المبتغى، ومقصد الرحالة بالوصف.

تُبنى الأفعال التواصلية في اللغة بناء قائماً على التمثيلات الذهنية التي تتولّد بشكل تقريبيّ، ومتفاوت في آن عن أحداث العالم وأوضاعه[1]، ويقوم التواصل في التفاعل الفكريّ واللغويّ بين وجود الذات ووجود الآخر[2]. هذا الأمر جعل الرحالة يفاضل في كلّ محطة يقف فيها ليدرك الآخر أولاً، وكنه ما يرى من أحداث وأوضاع للعالم المحيط ثانياً، فأشار إلى أمور كثيرة خصّت الموصوف، بالمدرك الشعوري كالجمال والحسن، وبالمدرك الحسّي كالحجم والمساحة للأماكن المرتحل إليها.

تكفّلت المقارنة التفضيليّة بجانب دلاليّ خفيّ، إذ دلّت على استيعاب بنية المفاضلة في أدب الرحلة، بأسلوب يدمج فيه المكونات اللغوية والمقتضيات الثقافية من جهة، وعلاقة الموصوفين المتفاضلين من جهة أخرى.

([1]) انظر تحليل الخطاب الصحافي، ص ١٥.

([2]) انظر اللسانيات ، سمير استيتية، ص ٦٩٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

صنّف هذا الأدب أشياء العالم وأمكنته تصنيف واقع ورؤية، وهو تصنيف يتطلّب منه مطابقة كل موصوف ما يلزمه من صفات تفاضليّة، تميّزه عن غيره، وتفرد له باباً وصفياً خاصاً، كي يتفاضل ويتخصّص.

تحلّى رحالة القرن الرابع الهجري بوعي تصنيفيّ يجعله يرفض الاعتراف بوجود موصوفات متشابهة، بل يعمد إلى مبدأ الأحادية في النظر إلى الموصوف، ويعطيه من شرف اللفظ ما يناسب شرف المعنى، فيحفظ له حضوراً في الأذهان لا مثيل له، فالموصوف (أكبر، وأجمل، وأنزه، وأزكى، وأحسن، وأبرع..... الخ)، وهذا الأمر يتكرّر بشكل دائم، إثر كل تنقّل، فبساط التفاضل لا يُطوى، وحضور التفرّد الأحاديّ لا يزول، وكأنّما الرحالة أراد أن يجعل من الحضور التفاضليّ الذي أثبته للموصوف في خطابه دليلاً أكيداً وشاهداً حياً على حضوره هو نفسه في واقع الوصف، وليس المقصود الحضور الجسمانيّ فحسب، بل لهذا الحضور تفرّد يلائم الموصوف، وتفاضل يناسب تفاضله، واعتراف يرفض حضور أيّ مزاحم أو منافس له.

وبعد أن تحقّق للرحالة ما أراد من إثبات التفاضل والتميّز، وصل بذلك إلى درجة الرضا عن نفسه في ترحاله، إذ حصل على ما لم يحصل عليه غيره، وشاهد ورأى وسمع ما يستصعب معرفته دون الترحال. فصور التفاضل ليست مجرد دليل على ما شاهد، بل هي أكبر دليل على حضوره هو نفسه، وإثبات فردانيته وتميّزه.

وفي الصفحات الآتية سأبين أنماط المقارنة التفضيلية عند الرحالة في مجموعتين هما:

المجموعة الأولى: المقارنة المثبتة.

المجموعة الثانية: المقارنة المنفية.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جدول أنماط الإثبات

١: موصوف (١) + (أفعل من) + موصوف (٢)

- أوسع من الفسطاط وآهل من بغداد وأكمل من البصرة وأجلّ من القيروان وأنظف من أردبيل وأعمر من همذان م ٢٧٣
- ..... أكبر من برسخان م ٢٤٦
- ..... أوسخ من أردبيل م ٢٥٥
- هي أجلّ من الصغانيان م ٢٥٧
- هي وحدها أكبر من همدان ص ١١٧
- هي أكبر من آمل ص ١٢٥
- هي مدينة أكبر من خوار الري وسمنان أصغر منها وبسطام أصغر من سمنان ص ١٢٤
- آمل أكبر من قزوين ص ١٢٤
- ..... أجلّ من زبيد وأعمر م ١٠٣
- ..... أكبر من جرش هـ ٢٦١
- وهي أصغر من جُدّة ص ٢٣
- وهي أكبر من تبوك ص ٢٤
- وصعدة أكبر وأعمر منهما م ٢٦١
- وهي مدينة أكبر من مهروبان ص ٣١
- وسائر الفواكه أقلّ من ذلك ص ٤٤
- هو أعظم من مهران ع ٦٦
- هو أعظم من دجلة والفرات ع ٧٢
- أطيب وأجود من الشيرق المقشّر ومن دهن الجوز واللوز هـ ٣٥٦
- فإنه أطيب من لحم الحمل الشهري هـ ٣٥٧
- وفور الشعر فيهم أقلّ ممّا في غيرهم من المدن ص ٦٣

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢ : السابق + مصدر التفضيل

١:٢

- بسطا أكبر منها عمارة وأكثر فواكه ص ١٢٤
- فإنها أكبر من أبرقوة وأرخص سعراً وأخصب ص ٧٧

٢:٢

- هي أيبس تربة من آمل وأقل مطراً وأنداء من طبرستان ص ١٢٥
- ماؤه أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من سائر أنهار الإسلام ص ٤٠
- صار المغرب أقل برداً من الجربى وأكثر يبساً ع ٣٧
- جلده أشد حراً من جلود سائر الأوبار ع ٧٢
- ٠٠٠٠أشد حراً من سواحل الشام م ١٩٦
- هي أصح هواء من البصرة ص ٥٨
- ٠٠٠٠أطيب هواء منها وأعذب ماء م ١٠٣
- ٠٠٠٠ أعمر من يثرب وأكثر نخيلاً م ١٠٠

٣: موصوف + (أفعل) + حذف (من)

- هي أرحب وأنزه م ٣٠٤
- كل بلد شديد البرد فأهله أسمن وأضخم وأحسن م٦٣
- وأما..... فهي أعمر ص ١١٩
- هي أطيب وأرحب م ١٩٥
- ٠٠٠٠أبرد وأيبس ع ٤٢
- الجامع٠٠٠٠ أكبر وأبهى م ١٩٣
- النفس أطيب والخاطر أدق م ٦٠
- ٠٠٠٠أكثر عدداً وأخصب ص ١٧٥
- انخفاضها يجعلها أسخن ع ٤٢
- الأبدان ٠٠٠٠٠تكون أضعف والبرد عليها أغلب ع ٧٨
- ٠٠٠٠٠في أول الشهر أقوى وأشد وفي آخره أنقص وأضعف ع ٧٩
- هو أحصن وأتلع وأوسع هـ ٣٥٠

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

– أهله أظرف وأحلم وبالخير والشر أعلم وإلى أقاليم العرب ورسومهم أقرب وقصباته أبهى وأطيب م ٢٦٠

٤: موصوف خاص + أفعل + موصوف عام

– هو أخبث ما في هذا البحر من الأماكن ص ٢٩
– هي أغنى بلاد فارس ص ٣١
– فلسطين أزكى بلدان الشام ص ٤٣
– هي أجل مدينة بالشام كلها ص ٤٥
– هي أصغر كور فارس ص ٦٧
– هو أنزه مكان بها ص ٥١
– هي أنزه شعب بفارس ص ٧٨
– فساهي أكبر مدنها وأعمر ص ٦٧
– العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم ع ٤٩
– هذا الإقليم ٠٠٠٠واعدلها وأفضلها ع ٤٨
– ٠٠٠٠أفضل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي الجزيرة الكبرى هـ ٣
– هي أقدم أسواق العرب هـ ٧٠
– هو أكبر نهر رأيناه ف ١٣٧
– ٠٠٠٠شرّ الأتراك وأقذرهم ف ١٣٨
– وصنعاء أقدم مدن الأرض هـ ٨٢
– وهو أعلى وادي حرمن هـ ١٢٥
– وهو أعظم أودية المشرق هـ ١٤٧
– وهي أولّ بلد حمير هـ ١٧٢
– هو أول بلاد عك هـ ٢٤٧
– هي أمنع ديار اليمن وأعزها هـ ٢٤٧
– علاف خير أودية خولان هـ ٢٤٩
– أهله أنجد همدان هـ ٣٥١
– فإن الرقة أكبر ما فيهما من المدن م ٥٣
– هي أكرم الأوبار ع ٧١
– هذا الموضع أضيق أعبار هذا النهر ع ٧٢
– هما أخصب مدن الجبال ص ١١٧

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- ....أضيق بلاد المشرق م ٢٥١
- هو أرخى مدن الناحية م ١٠٣
- .... أجلّ أمصار المسلمين م ١٩٣
- فإنّها أنزه الأماكن الثلاثة التي ذكرنا ص ١٦٥
- هو أعظم هذه الأنهار ص ١٦٦
- ....بأقبح بكاء وأوحشه ف ١٧٠

٥: السابق + مصدر التفضيل

١:٥

- ....وأغزرها ماء ع ٧٢
- ....وأكثرها ثمناً ع ٧٢
- ....وأكثرها خيراً وفقها وعمارة ورغبة في العلم واستقامة في الدين م ٢٤٠
- هي أمد الأقاليم مساحة وأفسحها ساحة وأفضلها تربة وأعظمها حرمة وأشرحها مدناً م ٨٩
- ....وأكثرها أهلاً ومالاً ص ١١٧
- ..... أشدها حراً ويبساً ع ٧٢
- ..... أكرمها كرهاً وأكثرها خيراً وزرعاً وأعناباً وماشية هـ ٢٤٩
- هو ألطفها خبزاً وأخفها خفة هـ ٣٥٧
- .... أعدلها غذاء وأصفاه هواء ع ٤٨
- ما سهل منه أكثرها أهلاً ومالاً ص ١١٧

٢:٥

- وهو أكثر الأقاليم علماً وفقهاً م ٢٧٧
- وهي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وثماراً ص ١٦٥
- فإنها أكثر هذه البوادي أحياء وقبائل ص ٢٥
- وهي أعمر بلاد تلك النواحي مخاليف ومزارع وأغزرها مياها ص ٢٦
- وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً ص ٢٧
- سيراف أشد تلك المدن حراً ص ٧٨
- هي أشد تلك النواحي برداً ص ١٢٣
- هو أعظم القمح حباً وأطوله شكلاً وأثقله وزناً ع ٣٦

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- ويذكر أهلها أنهم أكثر الناس فنداً وشهداً وعبداً ونقداً وصوفاً ع ٣٦
- أهل خراسان أشد الناس تفقهاً وبالحق تمسكاً م ٢٦٠
- صفوفه أكثر بلاد الله نحلاً وعسراً هـ ٣٥٠

٣:٥

- وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً م ٢٤٠
- أهلها أحسن أحوالاً وأكثر أموالاً وأشد بأساً وأعظم خلقاً وأرسخ في العلم وأمكن في الدين م ٢٣٧
- ما سهل منه فإنه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثرها نجيلاً م ١٧٦
- هي أشهم وأجمع قلوباً هـ ٣٦٣

٦: أفعل + موصوف عام + موصوف خاص

١:٦

- أعلاها جبل دُخار هـ ١٠٩
- أوسطها وغورها الباقل هـ ١٠٩
- أولّها وأقدمها غمدان هـ ٣٦٥

٢:٦

- أكثر أدمهم السمك م ١٩٦
- فإن أكبر مدنها فسا ص ٧٨
- أكبر مدينة بها الطابقان ص ١٥٦
- فإن أكبر مدينة بها الدامغان ص ١٢٤
- أطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة ونصف ع ٤٥
- أكثر مجامعها هزود هـ ٢٦٥
- فإن أكبر مدنها آمل ص ١٢٤
- أكبر مدنها ببن م ٢٦٨
- أعمر موضع بها رأس الطاق م ٢٤٩
- أطيب الحمامات ما كان على الشط م ٢٠٣
- أظرف الأقاليم العراق م ٦٠
- أقدم آبار الأرض بئر سام بن نوح بصنعاء هـ ٢٧٠

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- وأعظم هذه المدن الري ص ١٢٢
- أنفس الرقيق ما يرتفع من بلاد الترك اليهم ص ١٠٨
- أعذب المياه وأخفها ماء جيجون ص ١٥٨
- أيسر أهل خراسان أهل نيسابور ص ١٠٨
- أكبر مدن إيلاق نوكث وتونكث ص ١٨٥
- أكبر هذه الأنهار برش ثم بارمش ص ١٧٩

٧ : السابق + مصدر التفضيل

- أعظمها طولاً وعرضاً بحر فارس ص ١٧
- أشد هذا الإقليم برداً بعلبك وما حولها م ١٧٦

٨ : موصوف خاص + (من أفعل) + موصوف عام

- صور بلد من أحصن الحصون التي على شط البحر ص ٤٥
- وهي من أعظم كنائس الشام ص ٤٦
- وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها ص ٧٦
- ٠٠٠٠ من أجلّ المدن ص ٧٧
- هو من أعجب البناء وأحكمه ص ٦٤
- هي من أعظم البحيرات في المعمور ع ٧٣
- هو من أوسع قيعان نجد اليمن هـ ٢٤٣
- وهي مدينة من أنزه تلك المدن ص ١٨٧

٩ : السابق + مصدر التفضيل

- من أكثر المفاوز لصوصاً وفساداً ص ١٣٧
- ورأس برط من أصحّ اليمن وأطيبه وأعدله هواء هـ ٣٥١
- ٠٠٠٠ من أصحّ بلدان الشام تربة ص ٤٦

١٠ : موصوف (١) + أفعل + موصوف عام + (بعد) + موصوف (٢)

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- هي بعد دمشق أنزه بلد بالشام ص ٤٦
- هي أكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها ص ١٦٨
- وأكبر مدينة بهراة بعد هراة كروخ وأوفه ص ١٥١
- وأكبر مدينة المدن بها بعد بوشنج كوسوى ص ١٥١

جدول أنماط النفي

١: أنماط "ليس" :

- ليس في الإقليم أنزه ولا أطيب ولا أجود أهلاً ولا أحسن فواكه منها م ٣٥٧
- ليس في الإسلام ناحية أكبر حظاً في الجهاد منهم ص ١٦٣
- ليس في الإسلام دار حرب هم أشد شوكة من الترك ص ١٦٣
- ليس في الإسلام ملك أمنع جانباً ولا أوفر عدة ولا أكمل أسباباً للملك منهم ص ١٦٤
- ليس في أنهار فارس نهراً أكثر عمارة من هذا النهر ص ٧٤
- ليس بالعراق بعدما ماء جار ولا شجر ص ٥٨
- ليس بما وراء النهر وخراسان بلد أحسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة منهم ص ١٦٥
- ليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى وأكثر أهلاً على قـدرها ص ١٧١
- ليس بجميع فارس أصح هواء وتربة من كازرون ص ٧٨
- ليس بخراسان مدينة أصح هواء ولا أكبر من نيسابور ص ١٤٠
- ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها ص ٢٣
- ليس باليمن بناء أرفع منه
- ليس باليمن كنيسة أعظم منها ص ٥٤
- ليس بهذه الكورة مدينة أكبر من أرجان ص ٦٧
- ليس بجميع اليمن مدينة أكبر ولا أكثر أهلاً ومرافق من صنعاء ص ٢٦
- ليس بالحجاز مكان هو أبرد من رأس هذا الجبل ص ٢٤
- ليس لهم في البلد نهر أعظم منه ص ١٤٦
- ليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة ص ١٨٧
- ليس من العراق إلى خراسان بعد الري مدينة أكبر من إصبهان وأكثر خيراً منها ص ١١٧

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

– ليس يخرج من الفرات شعبة أكبر منه ص ٥٩

– ليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد أعمر بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ثم مسجد بلخ ثم مسجد سجستان ص ١٥٠

– يقال إنّه ليس في أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبحة وغيرهم إقليم هو أوسع منه ص ٣٥

٢: أنماط "لا" :

– لا يعلم بسائر الجبال ونواحي الديلم جبل أعظم منه ص ١٢٣

– لا أعلم في الإسلام بلد أجلّ منه م ٦٣

– لا أعرف للمسلمين اليوم بلداً أمصر ولا ثغراً أجل منها م ١٤٧

– أكيس من أهلها لا ترى في التزاويق والبناء في الإقليم م ٢٦٥

– لا أعرف له في الإسلام من عديل م ٢٧٢

– لا ترى أخف من ماء أريحا م ١٨٣

– لا أطمع من أهل مكة ولا أفقر من أهل يثرب ولا أعف من أهل بيت المقدس م ٦٢

٣ : أنماط "ما" :

– ما رأيت أعجب منها م ٣٥٤

– ما رأيت أحسن منها م ٣٢٩

– ما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم ف ١٦٠

–ما رأيت في الإسلام أعجب من دورها ولا أحسن م ٣٥٣

– يقال إنّ ما في النجب أسير منها ص ٤٢

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢: أنماط "لم" :

- لم أرَ ولا بلغني في الإسلام بلد أحسن خارجاً من بخارى ص ١٦٤
- لم أرَ بالعراق ولا بمكان أعذب ولا أحسن منظراً منه ص ٤٧
- لم أرَ أعظم أمراً من هذه الزلزلة ولا أطول مكثاً ع ٦٠

يحمل الوصف في ذاته قيمة، إذ إنّ إسناد صفة لموصوف ما يُعدّ إرسال حكم بشأنه، وإكسابه وصفاً، وإبداء موقف منه، وطريقة مخصوصة في رؤيته، وقد تكون هذه القيمة عامة مجرّدة، وقد تكون ذاتيّة بنسب متفاوتة، وعلى وجوه مختلفة[1]. يصدر الواصف أحكامه الذاتيّة على الموصوف، فالحكم على الشيء فرع لتصوّره. ويكون هذا الحكم ضمن مرجعيّة ثقافيّة، وبعض الضوابط المطروحة إلى حدّ ما، فيصطبغ بصبغة وجود تعبر عن مرسلها في الدرجة الأولى، فكأنّه يبادل الموصوف عطاء بعطاء، فيناسب الإبداع الوصفيّ ما وهبه إيّاه الموصوف من قوّة التعبير، ووجدان اللفظ، وشحنة القول.

عند النظر في الأمثلة السابقة تبدو لنا صور التفاضل ضمن الأنماط الآتية:

أولاً: موصوف (١) + (أفعل من) + موصوف (٢)

يرسم أدب الرحلة علاقة بين الموصوفين في هذا النمط، تخضع لمحدّدات معينة، فهي علاقة ينبغي أن تقوم بالأصل عند تواجد المحدّدات في الطرفين الموصوفين، بشرط زيادة طرف على آخر، فمبدأ التساوي في هذا الوصف التفاضليّ مرفوض، إذ إنّ وجود الموصوفين يتطلب وعياً بتميّز أحدهما على الآخر، في المساحة أو العمران أو الجودة أو غير ذلك. ولكن قد يكون الأمر معكوساً مثل: (أوسخ، أصغر، أقل). فالأساس الذي تبنى عليه المفارقة اللغوية

([1]) انظر الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجا ، محمد الناصر العجيمي، ص ٤٣٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

هو مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود الذي يحتمله السياق اللغوي، أو الموقف التبليغيّ الراهن[1]. فلم يقصد الرحالة من هذه المقارنة السلبيّة إلا التعبير عن عدم إعجابه بكلا الطرفين تفاضلا أو لم يتفاضلا، فلم يقصد إبراز صورة أحاديّة لأحد طرفي الوصف، كما يوحي ظاهر اللفظ.

ثانياً: السابق + مصدر التفضيل

من المعروف في نظرية الخطاب أن إصدار المنطوق يقتضى من المتكلم أن يقوم بأربعة أحداث هي: الحدث اللغوي، والمغزى منه، والتأثيرات، والنتيجة[2]، ويبدو في هذا النمط اقتران الحدث بالمغزى عند ذكر مصدر التفضيل، فهو يشير إلى ما يتحقق في التفضيل، ويبيّن محدّده الخاص، ليكون وقع تأثير التفضيل أكثر من سابقه. ومهما يكن من أمر فإنّ الذي ينبغي ملاحظته أنّ ذكر المصدر هنا يمايز بين أنماط التفضيل، فقد يشمل نوعاً من التكرار الإثباتي لمفاضلة الموصوف، فالتقييد بالتمييز يؤكّد المفاضلة، ويثبتها مرة أخرى، فعندما يقول الرحالة مثلاً: "أرخص سعراً، أعذب ماء" فإنّ في ذلك تثبيت للصفة أكثر من الاكتفاء بالمفاضلة دون المصدر، وذلك لوضوح المفاضلة من صيغة التفضيل، ففيها من الدلالة ما يكفي للوصول إلى المعنى. أمّا في: "هي أصحّ هواء، أشدّ عذوبة" ، فالأمر مختلف، وذلك لعدم معرفة نوع المفاضلة ومحدّدها إلّا بوجود المصدر، ورغم ذلك فالمصدر يمدّ الوصف ثباتاً بثباته، ويقوّي حدث المفاضلة فيه.

([1]) انظر المفارقة القرآنية : دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، ص ١٧.

([2]) انظر المصدر السابق، ص٧٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

ثالثاً: موصوف + (أفعل) + حذف (من)

للتفضيل وظيفة عاطفيّة تعبيريّة، تعلي من شأن المفضّل، وترفع درجته عن المفضول. ويبدو في هذا النمط تقدير (من) التي تشير إلى المفضول [1]، وذلك بتكثيف الدلالة على المفضّل، فلا يعير الخطاب المفضول كثير اهتمام، بل يُفهم ضمناً من السياق، ويكتفي باسم التفضيل ودلالته التعبيرية. فحقيقة التنقّل تتجلّى بقرارات تفضيليّة يتخذها الرحالة بهذا الأسلوب اللغوي، لأجل إبراز المفضل، بغض النظر عن حقيقة المفضول، فقد يكون قائماً بالفعل أو بالإيحاء، فالمكان قد يكون أرحب وأنزه وأطيب وأعمر.... من مكان آخر منافس له في الساحة نفسها، وقد لا يكون إلا تعبيرًا عمّا وراء التفضيل الحقيقي إلى تفضيل نفسيّ، يتأثر بوضع الرحالة، هذا الوضع هو الشكل الذي يرى المكان به، فيحوّل تجربته الخاصة إلى معطى ثابت للمكان وشخوصه وأرجائه، فما لا يدرك وصفاً ظاهرياً يستشف من مخبوء الموصوف، وخصوصيته.

رابعاً: موصوف خاص + أفعل + موصوف عام

تظهر في هذا النمط صورة الجزء والكلّ، وتظهر علاقة تمايز الجزء، وتفاضله في كلّه، ففلسطين مثلاً أزكى بلاد الشام، والعراق أشرف المواضع، وصنعاء أقدم مدن الأرض، وهكذا.... فالموصوف يعتلي قبة التفاضل. هذه البنية اللغوية ذات رصيد نفسي لدى الرحالة، إذ عبّرت عن تواصل حميم بينه وبين الموصوف من جهة، وتواصل آخر بينه وبين المتلقي، تأسّس بالدلالة الإيجابيّة والحيويّة للموصوف من جهة أخرى، فجعل المتلقي يستشعر التفاضل معه، وذلك حين يتجاوز الجزء مفردات الكلّ عامة، ويصبح محمّلاً بحضور فاعل، فيكتسب

([1]) شرح ابن عقيل، ٢/ ١٦٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

دلالة جديدة في سياق التفاضل التعبيري، ممّا يبرز شفافيته ويظهرها، ويخفت ضوء الكلّ المحيط به.

خامساً: السابق + مصدر التفضيل

يتخصّص التفضيل في هذا النمط، ويتحدّد بتمييز نوعه، كقول الرحالة: "هي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وثماراً"، فالتزم التفضيل بمجال محدّد، ودلالة مخصّصة، وقد لا يذكر الموصوف العام "بلاد الله، الأقاليم، النواحي....." أو الضمير المشير إليه كقوله: "أهلها أحسن أحوالاً وأكثر أموالاً وأشد بأساً....." لدلالة السياق عليه.

سادساً: أفعل + موصوف عام + موصوف خاص

يظهر تقديم صيغة التفضيل في هذا النمط، فقال الرحالة مثلاً، "أقدم آبار الأرض بئر سام"، ولم يقل: بئر سام أقدم..." كالنمط السابق، وكذلك الحال في بقية الأمثلة، وهذا تقديم يوحي باشتغال الرحالة بتفضيل هذا الموصوف، واهتمامه بأمر تفضيله، "فالألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق"[1]، لذلك كان تقديم صيغة التفضيل على الموصوف لتأثير معنى التفضيل في نفس الرحالة، وهذا التأثير أوجد الترتيب النمطيّ المبتدئ بصيغة التفضيل، فيرى عبد القاهر الجرجاني "أن المعاني تترتب في النفس، وإذا فرغ المرسل من هذا فلا يحتاج إلى أن يستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل يجدها تترتب له بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، فالعلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[2].

([1]) دلائل الإعجاز، عبد القاهر، ص٥٢ .

([2]) المصدر السابق، ص ٥٤ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سابعاً: السابق + مصدر التفضيل

يتحدّد التفضيل في هذا النمط بذكر المصدر، وفي هذا تقلّ درجة التفضيل نوعاً ما، مقارنة مع سابقيه، بربطها بمعنى خاص للمفاضلة، وعدم إطلاق الأمر.

ثامناً: موصوف خاص + (من أفعل) + موصوف عام

عند مقارنة هذا النمط مع سابقيه تبدو الإشارة إلى وجود الموصوف ضمن محيط التنافس والتزاحم، هذا المحيط يشغل تفكير الرحالة، ويدقّ مسلكه الوصفيّ في التفضيل، فيجعله غير متثبت من أمر التفضيل، ويخفّف من وطأة التفضيل بهذا النمط، فيكون الخطاب: "من أحصن الحصون، من أقدم مدن فارس، من أعظم البحيرات، وهكذا..."، فالموصوف أقلّ درجة في هذا النمط من موصوف الأنماط السابقة.

هذا النسق التفاضليّ التزم مبدأ التقسيم والتصنيف في مسألة التفاضل، ومطابقة كلّ موصوف بما يناسبه.

تاسعاً: السابق + مصدر التفضيل

يتحدّد هذا النمط كحال كلّ من النمط : "الثاني" و"الخامس" و "السابع" بالتمييز، إلّا أنه أقلّ الأنماط درجة تفضيليّة، وذلك بتحديد الموصوف بالمصدر علاوة على أنّه : "من أفعل...."، وكأن الرحالة على وعي تصنيفيّ بما يفاضل، فيعطي كل موصوف ما يناسبه من درجات التفاضل، ويقارن بين الموصوفات وفق ما يرى من مظاهر، ووفق ما يحسّه من مكنونات خفيّة تجاهها.

عاشراً: موصوف (١) + أفعل + موصوف عام + (بعد) + موصوف (٢)

يذكر الرحالة في هذا النمط موصوفين مختلفين، يفاضل بينهما، بعد أن يجعل الموصوفين متفاضلين على صورة الكلّ الخاصة بهما، فيسلّط الضوء بذلك على الموصوفين

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

معاً، ويخرجهما من دائرة الكلّ، ثم يأتي بموصوفه المفضّل، ليكون أوضح ما برز في صورة الوصف، كالخطاب الآتي: "هي بعد دمشق أنزه بلاد الشام"، وقد يتغيّر ترتيب الجملة مع الحفاظ على ترتيب الموصوفين، كما في: أكبر مدينة بعد قصبتها"، وبذلك يريد من متلقيه أن يستذكر الموصوف الأهم، ولا يغفل عنه في حضرة غيره، وإن كان غيره هو محطّ الحديث ومجال الوصف.

أمّا بالنسبة للمجموعة الثانية، فيبدو أنّها عبّرت عن موصوف متفرّد، بل يفوق الوصف، ويصل إلى أعلى درجات المفاضلة، ومن الإجحاف بحقّه مقارنته مع موصوف آخر، وتفضيله عليه، بل لم يرَ الرحالة مثله، وليس هنالك غيره، ولا يُعرف له شبيه.

عوّل الرحالة على أدوات النفي، في رسم صورة التفاضل المقصودة، فخرجت أنماط التفاضل المنفية الآتية:

أولاً: أنماط "ليس" :

١- ليس + موصوف عام + موصوف نكرة + (أفعل من) + موصوف خاص

٢- السابق + مصدر التفضيل

٣- ليس + موصوف عام + أفعل ٠٠٠٠+ معطوف منفي بـ(لا)

٤- يُقال + جملة التفضيل

ثانياً: أنماط "لا" :

١- لا + (أفعل من) + الموصوف

٢- لا + أعرف/ أعلم٠٠٠ + (أفعل من) + الموصوف

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣- لا + أعرف/ أعلم٠٠٠ + موصوف عام + موصوف نكرة + (أفعل من) + موصـــوف خاص

ثالثاً : أنماط "ما " :

١- ما + أعرف/ أعلم٠٠٠ + (أفعل من) + الموصوف

٢- لا + أعرف/ أعلم٠٠٠ + موصوف عام +(أفعل من) + موصوف خاص + معطـــوف منفي بـــ(لا)

٣-يُقال أن + (ما)+٠٠٠٠

رابعاً : أنماط "لم "

١- لم + أعرف/ أعلم٠٠٠ + (أفعل + مصدر التفضيل + من) + الموصوف

٢- لم + أعرف/ أعلم٠٠٠ + معطوف منفي بـــ(لا) + موصوف نكرة + (أفعل + مصدر التفضيل + من) + الموصوف

تبدو في التراكيب السابقة سيطرة الموصوف على وجدان الرحالة، فيأتي خطابه بطابع بهرجة لفظيّة ونسيج لغوي مغالٍ، يميل عن الواقعية بعض الشيء، فالمكان متفرّد لـــيس لـــه مثيل، ويدور هذا التفرّد في فلك اهتمامات الرحالة أولاً، ثم خصوصيّة المكان ثانياً، وما هـــذه الاهتمامات إلّا ثمرة ترحاله، ونتيجة تنقّله، لما شاهد من عمران ومناخ وحصانة، وغير ذلـــك ممّا سبق ذكره.

زوّدت الأنماط التفاضلية السابقة الرحالة بقدر من المرونة في تقسيم الموصوفات، فلا ضيق ولا محدودية في إبصار التفاضل، بل إنّه متعدّد ومتفرّع، ليصل كـــل موصـــوف ذي أهميّة، أيّاً كان مجالها، فهناك تنظيم خفيّ بين السطح والمعنى يتكاثف فيه المعنى بشكل كبير،

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لرسم صورة المفضّل، وهذه هي الرسالة التي يريد الرحالة بثّها لمتلقيه، ولكي يستطيع التقاطها عليه أن يعي تأثير الأمر في نفس مرسلها، فتتحقّق بذلك عملية الاتصال المرجوّة، ويصل كلاهما إلى نقطة وصل لمقبوليّة مشتركة.

هذا الأمر ينقل الموصوف من عالمه الماديّ إلى عالم الرحالة الفرديّ، وينقل اللغة كذلك من معطى اجتماعيّ إلى معطى فرديّ، تكتسب فيه التراكيب خصوصية تتعلق بالمتكلم، ويكشف مميزاتها المتلقي[1].

ينحو المبدع إلى إدهاش القارئ في تأليفاته واختياراته الواعية، وبخاصة إذا كان توزيعها على مساحة الخطاب يخضع لقوانين داخليّة يقتضيها نظامه الدقيق، فالحقيقة العلمية في الاختيارات الكتابيّة خاضعة للتصوّر الذاتيّ والمعرفيّ، الذي يجعل من الخطاب في كليّته لغة واحدة[2].

هذا ما يقصده الرحالة في تراكيب التفضيل المنفية، فهو يحقّق النفي بـ (ليس) و (لا) مبتغى الرحالة في التفاضل، فينفي حدثاً زمنيّاً مطلقاً دون تقييد بهما، ليبيّن موصوفاً متفرّداً، فانتفى حدث المعرفة لموصوف آخر يماثل المفضّل في التفضيل المذكور، مثل: "لا أعلم في الإسلام بلداً أجلّ منه"، وانتفى مماثلة الحدث المقصود لموصوف آخر غير المفضل كقوله: "لا أطمع من....، لا أعفّ من.....".

يعبّر خطاب أدب الرحلات إذن عن انطباعات ظاهرة لفظاً ومحجوبة دلالة، وترك الفرصة للمتلقي أن يرسم معالم ما يرى وما يستشفّ بدقّة وأناة.

([1]) انظر لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري ، أحمد مداس، ص ١٩.

([2]) انظر المرجع السابق، ص ٢٦- ٢٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

يبدو في استخدام "ليس" إطلاق الزمن المنفي علاوة على نفي الحال، فتركيب التفضيل يجعلها تشمل الزمن المطلق، كقول الرحالة: ليس في الإسلام.....، ليس بالحجاز.....، ليس بجميع اليمن.....، ليس بهذه الكورة..... الخ.

وفي ذلك قرائن[1] تدلّ على إطلاق الزمن بها، وتعميمه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، إذ إنّه بهذا التركيب التفاضليّ ينفي وجود مماثل للموصوف فيما مضى من الزمان، وحاضر الارتحال، وينفي أيضاً الاحتمال والتوقّع في المستقبل، لما أعطاه للموصوف من مغالاة المعنى وبهرجة اللفظ، فلم يدع لمتلقيه فرصة التنبؤ بأحسن منه أو مثيل له.

وتنفي "لا" حدث الحضور والاستقبال[2] والمضيّ في هذا السياق كذلك، لدلالة تركيب التفاضل على إطلاق الزمن لإطلاق الحكم، ولمّا كانت "لا" للنفيّ العامّ فإنّ تكرارها أحياناً واجب لأنّه معنى من المعموم[3].

ويبدو ذلك في قوله: لا أطمع من..... ولا أعفّ من..... الخ".

يلجأ الرحالة في هذا التفاضل إلى صياغة التراكيب القصيرة المتوازنة، وكأنّ مفرداته تخضع لبواعث نفسيّة محرّكة له، فتتوازن في مفرداتها، ويؤثّر الموصوف تأثيراً قوياً فيه، فلا يجد ما يناسبه وصفاً إلّا قصر العبارة، وعظم الدلالة في النفي التفضيليّ، وبذلك يعتلي الموصوف قمّة الوصف إيجاباً وسلباً.

أمّا في استخدام "ما" و "لم" فيتضح في ذلك خطاب معبّر عن (الأنا)، وإظهار لها بشكل جليّ، لتمنح الوجود بعداً حيوياً فعّالاً، وذلك بإسناد حدث (المعرفة/ الرؤية) إلى الرحالة

---

(1) انظر شرح المفصل، ابن يعيش، 7/ 111- 112 ، يقول:" لا تكون "لا" إلّا لنفي الحاضر، ولا ينفى بها في المستقبل، وقد أجازه أبو العباس والمبرد وابن درستويه" .7 /112

(2) انظر بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، ص 230.

(3) انظر أساليب النفي في القرآن، البقري، ص 23.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كما في "ما رأيت....، لم أرَ..... كما بدا الأمر في أيضاً: "لا أعلم....."، فيخلق الرحالة بذلك علاقة اتصاليّة بين أطراف ثلاث "المرسل، الموصوف، المتلقي"، ضمن زمن يتسع في "ما" ويضيق أحياناً في "لم" التي تصرف معنى المضارعة إلى المضيّ في نفيها للحدث[1]، وضمن حدث يثبت في "ما" ، ويزداد تأكيداً في "لم" فهي آكد في النفي من "ما"، والنفي بها غير متوقّع الإثبات[2].

كثيراً ما كان الرحالة يجعل من نفسه بؤرة للتفاضل، فتراه يسند الرؤية التفضيليّة إليه، فحدث "الرؤية" يوحي بالذاتيّة بالقياس إلى الأنماط السابقة، فالرحالة لا يرى أكثر مفاضلة من الموصوف، وهذا الأمر لا ينفي وجود مثيل له أو ما يفوقه تفاضلاً.

وملخّص القول إن الرحالة هو المفضّل الذي يحكم مسألة التفاضل في الموصوفات، ورغم استناده إلى رؤى واقعية فإنّه المقرّر الأوّل لطرفيّ التفضيل، وتبعاً لذلك تكون اختياراته اللفظية في نسق معين، وضمن إطار محدّد، قد تبدو هذه الاختيارات عاديّة ، مكشوفة لا تحرّك فكراً أو شعوراً، بل قد تشعر بالضجر في إصراره على الأحاديّة والتفرّد لموصوفه، لكنّها بلا شك فيها من الغموض الشفيف ما يثير الشعور بالجمال، هذا الجمال الذي اصطبغ في كل مكان بلون، وأدّى إلى تجدّد دائم في عينيّ الرحالة، ونقل الأمر لمتلقيه. ساعده التجدّد في خلق تفرّد لا يزول، وسدّ شقوق متاعب الرحلة، باستحضار علاقات تسكن المكان.

([1]) انظر التراكيب اللغوية في العربية، هادي نمر، ص ٣٤١.

([2]) انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ١/ ٣٠٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يُعَدّ الوصل من مظاهر الاتّساق في الخطاب، فهو يُحدّد الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظّم. معنى هذا أن الخطاب جمل أو متتاليات متعاقبة خطياً، مترابطة تركيبياً ودلالياً، ولكي تدرك وحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوّعة تصل بين أجزائه، ومن ذلك الوصل العكسي، الذي يعني على عكس ما هو متوقع[١].

درس هاليدي ورقية حسن الوصل العكسي، وذكرا بعض أدواته مثل: "but"، "yet"، "however"، "never the Less" إلّا أنّ الأداة التي تعبر عن الوصل العكسي في نظرهما هي "yet"[٢]، إذ إنّ أدوات الوصل العكسي تعبّر عن نمط من العلاقات، فتربط ما يقال الآن بما يقال آنفاً[٣]، ويعترف هاليدي ورقية حسن أن التي تملك قوة الترابط في الواقع هي العلاقة المعنويّة الضمنيّة قبل أن تكون الأداة النحويّة الخاصة بالربط، ومع ذلك فهما يصرّان على أنّ الشيء الذي يشكّل دعامة النص هو وجود أدوات الربط فيه[٤].

يبدو أن علاقة الوصل بين الجمل في الخطاب تحقّق اتّساقه شكليّاً وضمنيّاً، إذ في اعتماد الجمل على أدوات الوصل تحقّق للمعنى، وإن اتضح المعنى بدونها، إلّا أنّ فيها ترابط أجزاء الخطاب، وتعلّق بعضها ببعض، فتُفهم علاقة كلّ جزء وآخر بالاعتماد عليها.

الوصل إذن وسيلة من وسائل إبراز الجمال، يربط معنيين متّخذاً الإيضاح وسيلة لإبراز جمال المعنى، فيعرضه جليّاً؛ ليكون خالصاً بذاته أمام المخاطب، فيتدبّره حقّ التدبّر،أو

---

(١) انظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص ٢٢- ٢٣.

(٢) انظر السابق، ص ٢٣، نقلاً عن Cohesion , p ٢٢٧

(٣) انظر تحليل الخطاب، براون ويول، ص ٣٠٠.

(٤) المصدر السابق، ص٣٠١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يتّخذ الإيجاز وسيلة في عرضه، كيلا يتشتّت الذهن في استيعاب المعنى[1]. يربط الوصل معنى بمعنى لغرض بلاغيّ[2]، أو هدف يسعى الخطاب لإيصاله، فيعرض الخطاب في حالة الوصل العكسي حالتين للموصوف بأداة تقسم الموضوع جزأين، وتصوّر الهيئة المقصودة، فيتّضح المعنى ويثبت، بعدما توقّع المتلقي عكسه.

يبرز جمال المعنى المقصود حين يُوجد مكتملاً ناضجاً موحياً، ليحقّق كمال الفائدة، وكمال الفائدة في أن يظلّ قادراً على الإفادة مؤدّياً إلى معان تتّضح بوجوده، وتنبعث من إيحائه، ثم تترابط هذه المعاني الجزئيّة، لتصوّر المعنى الكليّ أو الفكرة المقصودة[3].

يدلّ وجود الوصل العكسي على أنواع العلاقات القائمة بين الجمل، التي تتماسك بها، وتبيّن أدواته مفاصل النظام الذي يقوم عليه الخطاب[4]، وملاحظة دلالاتها على مستوى العلاقة بين المفردات داخل الجملة، وعلى مستوى الخطاب كاملاً، وذلك بإدراك مقولاته المجسّدة، وإشاراته الإخبارية، فهو وحدة دلاليّة تشكّل مضموناً، يضمن الفائدة التي يريد المرسل إيصالها عبر القناة. يُعدّ الوصل العكسي قالباً يلجأ أدب الرحلة إليه كثيراً، ليعلّق وحداته الإخبارية فيما بينها، وفق مبدأ العلاقة العكسيّة التي تحكم الموصوف، فلا تُؤخذ وحدة إخبارية بمعزل عن الأخرى، بل تثبت العلاقة وتتّضح، بربط كلّ وحدتين متعاكستين بأدواته، فيتشكّل الخطاب بوجوده متماسكاً محكم البناء.

أمّا البناء الخارجي للخطاب، فإنّه يعطي المتلقي تصوّراً عامّاً عمّا يريد المتكلم إثباته، وفي شيوع الوصل العكسي يبدو إصرار الرحالة على موقف له من الثبات ما توحي به

---

(1) انظر الفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان، ص ١٩٥.

(2) انظر المصدر السابق، ص ٢٧.

(3) انظر المصدر السابق، ص ١٩٥.

(4) انظر نسيج النص، الأزهر، ص ٣٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عباراته، فتقوم علاقة التعارض بتنشيط مساحة عدم التوقّع في ذهن المتلقي، ليصل الرحالة بذلك إلى أثر معين يتشكّل في رسم صورة واحدة للموصوف بلونين متغايرين.

بناء على ما سبق، يتبيّن أن أسلوب الوصل العكسي يعتمد آلية الصورة التجسيديّة للموصوف، سواء أكان ذلك لبيان جماله أم قبحه، فيؤثّر فكريّاً وعاطفيّاً في نفس المتلقي الذي لم يتوقّع ما بعد أداة الوصل العكسي، فعرضت له رؤى مخالفة لما قبل الأداة، وبذلك تجسّدت الصورة الجماليّة للوصف في خطاب فكريّ مؤسّس على رؤى الرحالة وقناعاته.

وسأعرض الآن الأمثلة وفق العلاقة التي تنتظم طرفي الوصل العكسي.

١: وصل طرفين مختلفين للموصوف نفسه

يصف الخطاب في هذا النمط موصوفاً واحداً بصورتين مختلفتين، في تراكيب الإثبات، وفي تراكيب النفي، وفي ما يأتي أمثلة ذلك:

١: ١ الوصل المثبت

وصف إيجابي/سلبي+أداة الوصل العكسي+عكس الوصف المذكور

- غزيرة الماء رحبة، إلّا أنّ ماءها ثقيل م ١٦٤.
- حارة في الصيف إلّا أنّ ليلها طيب م ٩١.
- حارة في الصيف غير أنّ ماءهم ثقيل وتمرهم وسط م ١٠١.
- حارة في الصيف غير أنّ أسواقه ضيقة والأسعار بها غالية والثمار قليلة م ١٠٢.
- حسنة الأسواق ٠٠٠٠إلا أنّ الأعراب بها محيطة والطرق إليها صعبة م ١٤٧.
- ٠٠٠٠٠غير أنّ قلعة الصراط في الهواء م ٢١٧.
- ٠٠٠٠والتمور بها كثيرة٠٠٠٠غير أنّها ضيّقة الماءم١٥٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- قد خرِب حصنها غير أنّها منيعة م ٢١٨
- كثيرة المرابطين قليلة الجاهلين ومستقر ملوك المسلمين غير أنّها ضيّقة البيوت كثيرة الحريق منتنة مبرغثة حارة باردة آبار مالحة وأنهار مذمومة واستراحات مؤذية وطينة وحشة م ٢٥١.
- كبيرة إلّا أنّ ماءها ضيق ونهرها ينقطع وأهلها غاغة وبها عصبيات وحشة م ٢٥٢.
- ومشاربهم من أنهار تمد إلى جيجون غير أنّ موادها تنقطع عنه في بعض السنة م ٢٥٢.
- أهل جماعة وسنة يحبون الغريب والصالحين إلّا أنّها قليلة العلماء خالية من الفقهاء م ٢٥٢.
- رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه غير أن أهلها جهّال وإليها الطرق صعبة م ١٧٣.
- بناؤن حذّاق وقرّاء ليس مثلهم بالعراق وحسن نغم وجودة قراءة ومنظر وخبر، إلّا أنّها في كل حين يغلب عليها النهر ويتأخّرون عن الشط م ٢٥٥.
- ٠٠٠٠٠ إلّا أنّ الفساد فيه قد فشا م ٢٦٠.
- صغيرة غير أنّها نزيهة كثيرة الخيرات م ٢٦٣.
- رفقة مباركة غير أنّ البرد فيها شديد والثلوج كثيرة م ٢٦٤.
- غزيرة المياه غير أنّ حيّاتها كثيرة وحرّها شديد م ٢٦٥.
- حصينة طيبة غير أنّ أهلها غاغة والقتل عندهم عادة وليس لمذكرهم فقه ولا عبادة، لسان قبيح وفسق فضيح لا يشبع خبزهم ولا ينقضي حرجهم م ٢٦٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- به مياه جارية وعساكر راتبة وخيرات كثيرة وحمامات طيبة إلّا أنّهم بخلاء ثقلاء، قليل العلماء، وبلد وحش منتن أحد كنف الدنيا، أهل مكر وغفلة لا ينظرون في العواقب ولا يعذرون أهل المذاهب، ولا مذكر فقيه ولا رئيس وجيه ولا معدل أديب ولا حاذق طبيب م ٣١٦- ٣١٧.
- ٠٠٠٠وعلم كثير وعقل وحذق وإتقان غير أنّه شديد البرد ترى خدودهم في الشتاء مشقّقة م ٣٢٢.
- فمرو بلدة سريّة لو لم تكن من أهلها خفيفة قد خربت إلّا منازل طفيفة م ٢٦٩.
- ما يؤخذ من أغنيائهم فهو موضوع في فقرائهم، ومن جنى جناية فالعفو أو الحد، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى م ٢٦٩.
- واعلم أنّه مصر جليل غير أنّك لا ترى فيه سوقاً حسنة ولا خاناً لبقاً، ثم عوام كلّما نعق ناعق اتبعوه مع عصبيات وحشة ورسوم غير حسنة م ٢٧٤.
- لهم قني قريبة وآبار، كثيرة الخير، رخيّة الأسعار، واسعة الحطب، حسنة الثمار إلّا أنّها بليدة، خربة الأطراف، باردة، رديّة الحمامات، وبئس قوم إذا دارت الدائرات م ٢٧٥.
- وهم قوم جياد إلّا أنّ ماءهم قليل م ٢٧٥.
- أقلّ دار إلّا وبها بستان وماء جار وقرى كبار إلّا أن بها كل عيار، قد زادوا في القرآن، ورجعوا في الآذان، وخالفوا الإسلام م ٢٧٦.
- لسان وحش، وبلد قذر، ومعاش قليل، إلّا أنّ عليها حصناً منيعاً م ٢٧٦.
- وهو بلد كبير نحو فرسخ في مثله، إلّا أنّ أطرافه قد خربت م ٣٢٧.
- وهو عين ماء مالح إلّا أنّه شروب ص ١٣٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- ونهرهم يشق البلد غير أنّهم لا يشربون منه م ٣٢
- نفيسة طيّبة وبلدة نزهة وعيشة راضية إلّا أنّهم غاغة وفيهم سلامة وفي قلـــوبهم غلظة م ٢٤٥.
- يحكمون عمل القسيّ إلّا أنّ أطرافها رخوة حسان إلّا أنّ فيهم برداً، شهام وفيهم بله م ٢٤٧.
- ٠٠٠غير أنّ في أهلها وهوائها برداً جفاة مع الغرباء بلية في الشتاء م ٢٤٩
- هواء معتدل وماء صحيح وطعام نظيف وأضداد مجتمعة وخيرات كثيرة وأسعار رخيصة وعلم ودراية إلّا أن أكثرهم معتزلة وهي من أهلها خفيفة ومـــدنها قليلـــة م ٣٧٩.
- يجري خلالها الأنهار ويملأ غيظانها الأشجار إلّا أنه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك م ٢٠٨.
- ٠٠٠٠٠غير أنّ ماءها أخف ماء في الإسلام م ١٧٢.
- ٠٠٠٠٠غير أنّ مساجدها حسنة، وبها قصور جليلة ومتاجر مفيدة م ١٩١.
- ٠٠٠٠٠إلّا أنّها في جزيرة ضيقة م ١٩٥.
- وهي مباخس قليلة الثمر قشفة إلّا أنّ لهم مواش كثيرة ص ١٠٥.
- والسوس الأقصى اسم المدينة إلّا أنّها كورة عظيمة ص ٣٤.
- مدينة وسطة من حد تاهرت إلّا أنّها متقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمـــال ص ٣٤.
- بلدان السودان بلدان عريضة إلّا أنّها قفرة ص ٣٤.
- كانت كبيرة إلّا أنّها خربت بعصبية وقعت بينهم ص ٣٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- وأما السقنقور فإنّه صنف من السمك إلّا أنّ له يدين ورجلين ص ٤٠.
- يجب أن تكون حارة لتأثير الكواكب إلّا أنّ ما يظهر من بخار الأرض يغلب على البلد ع ٥٦.
- وبرطاس أمة عظيمة من الترك بين بلاد خوارزم ومملكة الخزر إلّا أنّها مضافة إلى الخزر ع ٧١.
- وهي تنقسم في نفسها مثل هذه الأربع نقط من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب إلا أنّها غير ذات نسبة من الفلك ع ٢٦.
- أمرهم شورى بينهم غير أنّهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه، جاء أرذلهم وأخسّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه ف ١٢٢.
- والربِ الذي في السماء أكبرهم إلّا أنّه يجتمع مع هؤلاء باتفاق ف ١٣٩.
- له خوص دقاق، إلّا أنّه مجتمع ف ١٥٧.
- وكان في طاعته إلّا أنّه لم يكن داخلاً في الإسلام ف ١٦٨.
- هو كذلك إلّا أنّا قد اجتهدنا.... ف ١٤٩.
- وهي ثلاث بحيرات، فيها اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة إلّا أنّه ليس في جميعها شيء يلحق غوره ف ١٦٤.
- الأنهار متقاربة منها نفيسة غير أنّ أطرافها قد خرجت، وقد خفّت من أهلها وتشعث حصنها م ٣١٥.
- بها علم كثير لا تخلو من إمام ونظار إلّا أنّ خبزهم أثير وأدمهم كربة وعيبهم كثير م ٣٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- مياسير بأموال وإنعام، مشاهير بإلطاف وإكرام إلّا أن لها عيوباً وأحزاناً ليس بها مبنى على رسم البلدان والسوق في الدور والباعة نسوان... م ٣٠٠.
- خربة الأطراف ردية الحمامات لا حسنة الأسواق ولا كثيرة الأجلّة غير أنّها جيدة الهواء وفي أهلها وطاء م ٢٩٩.
- قوم أوطياء يحبون الغريب إلّا أنّهم لصوص م ٣٠٤.

١: ٢ الوصل المنفي

أداة نفي + وصف إيجابي/سلبي+أداة الوصل العكسي+عكس الوصف المذكور

١:٢:١

- ليس لهذه المدينة قرى إلّا أن مزارعهم مفترشة ص ١٢٩.
- غير واسعة الرقعة إلّا أنّها عامرة حسنة م ٢٤٢.
- ليس بالكثير إلّا أنّها رحبة منعمّة رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم طيّبة الفواكه مع كثرة م ٢٦٤.
- لا بها حرّ ولا براغيث ولا هوام إلّا أنّها جنّة يرعاها بقر قوم غنم لا سخاوة ولا ظرافة تحت عمائمهم فجّار، وفي معاملتهم فساد م ٣٢٥.
- لا عفنة ولا سبخة ولا ملولة ولا كربة، إلّا أن في هوائها يبوسة وفي أهلها جفوة وفي لسانهم رخاوة وفي رؤوسهم خفة م ٢٧٣.
- ليس بهما عامل لبني أمية إلّا أنّه يخطب بهما لهم ص ٣٦.
- ليس للملك فيه حق، غير أنّهم يؤدّون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمّور ف ١٥٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- ليس له من الأمر والنهي في شيء إلّا أنّه يعظم ويسجد له إذا دخل إليه ص ١٣١.

١: ٢: ٢

- لا يظهر إلّا في كل أربعة أشهر متنزهاً ف ١٩١.
- لا تسلك إلّا من مواضع معروفة ص ٣٧.
- لا يكون في مكان إلّا في النيل ص ٤٠.
- فلا يجوز هذا الدرهم إلّا في عمل بخارى وحده ص ١٧٥.
- لا ترى الحصى إلّا في صحن جامع طبرية م ١٨١.
- لا تكون إلّا في تلك الأنهار ص ١٣٠.
- لا تُسلك إلّا عن الضرورة ص ١٣٤.
- لا تُسامت إلّا ما بين خط الاستواء هـ ٨.
- لا تكون إلّا في بلد حار هـ ٢٣٥.
- لا يخالطهم إلّا طيء هـ ٢٧٢.
- لا يُرى إلّا على خط الأفق هـ ٧.
- لا يُشرب إلّا من السيل هـ ٣٦٠.
- لا يعمل أهل اليمن حلاواهم إلّا به هـ ٣٥٦.
- لا يكون إلا بنجران هـ ٣٥٨.
- لا يكون إلا بصنعاء هـ ٣٥٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١: ٢: ٣

- ما علمت مدينة في بر ولا بحر فيها قوم من الفرس مقيمون إلّا وهم عيون تلك المدينة ص ٨٤.
- لا تجد في بلدان الإسلام أهل ثروة إلّا والغالب على أكثرهم صرف نفقاتهم ص ١٦٢.
- لا يكون الإنسان منه في مكان إلّا وهو في نهر ونخيل ص ٥٧.

١: ٢: ٤

- لا يُسامتهم من الكواكب الجارية كوكب إلّا أن يكون أقصى عرضه في الشمال هـ ٨.
- لا يمكن للغريب أن يظهر إلّا أن يضيء النهار م ٢٥٥.
- لا أعلم فيما بين العراق واليمن والشام مكاناً إلّا وهو في ديار طائفة من العرب ينتجعونه في مراعيهم ومياههم إلّا أن يكون بين اليمامة والبحرين ص ٢٥.

١: ٢: ٥

- لا تسامت أحد من سكان الأرض إلا من كان منهم على خط الاستواء هـ ٨.

١: ٢: ٦

- ليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلّا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه ص ١٦٣
- لا مدينة فيها إلّا وفيها عجائب البنيان بالصخور والمرمر والبلاط ع ٣٥.
- ليس منها كورة إلّا وفيها طريفة أو عجيبة لا تكون في غيرها ع ٣٥.
- ليس بخراسان مدينة كبيرة إلّا وبها من أهل خوارزم جمع كبير ص ١٧٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١: ٢: ٧

- لا يسقط فيه الثلج إلّا ومعه ريح عاصف شديد ف ١١٤.
- لا يكون لفقيه من أهل الأمصار شرط إلّا ولهم أبلغ منه وأعذب لفظاً وأوقع معنى وأقرب اختصار هـ ٨٣.

١: ٢: ٨

- فلا يراه أحد من رعيته إلّا خر لوجهه ساجداً له ف ١٩٣.
- لم يبق أحد إلّا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه ف ١٥٩.
- ليس من قرية إلّا يخرج منها فارس وراجل ص ١٦٣.

عند النظر في الأمثلة السابقة تبدو لنا أداة الوصل العكسي تفصل بين حالتين متغايرتين، سواء أكان الوصف مبتدئاً بإثبات أم بنفي، إذ يعمد الرحالة إلى نقل أخبار عن موصوفه بطريقة الوصل العكسي، ومن الثابت أنّه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه، لأنّه ينقسم إلى "إثبات" و "نفي" و "الإثبات" يقتضي مثبتاً ومثبتاً له، و "النفي" يقتضي منفياً ومنفياً عنه[1].

يريد الرحالة إذن أن يثبت وصفاً لموصوفه، ويريد أيضاً نفي صفة عنه، لكنّه في الحالتين يستدرك ما يخالف الإثبات والنفي، فيعمد إلى الوصل العكسي لإيصال ما يريد، فيبدو الخبر إيجاباً، ثم يأتي بما هو عكسه، فينقلب سلبا، ويبدو سلباً، ثم يستدرك ما يقلبه إيجاباً.

([1]) انظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٥٤١- ٥٤٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يقوم الرحالة بنقل الخبر فهو صادر عنه، ويحصل من جهته، وتعود التبعة فيه عليه، وهو يثبت ما جاء به وينفي ما أورده. إذ يكون مزجي لإثباته ونفيه، ومؤكّداً وناقضاً فيهما[1]. حكّم رحالة القرن الرابع الهجري ميوله في ذلك، وطغت ذاتيته – شاء أم أبى– على الخبر المنقول، فجاء الوصل العكسي دليلاً على ذلك، في نقل صورتين متقابلتين للموصوف نفسه، فكأنّ الرحالة ينقل ما يراه ثم يستدرك، لنقل ما يراه غيره، أو ينقل ما يجب أن يُقال ثم يستدرك، فينقل ما يريد أن يقال، أو ينقل ما هو ظاهر ثم يستدرك، فينقل ما هو مخبوء.

جاء الإثبات إيجاباً، وذلك بذكر محاسن الموصوف المتعلّقة بمظاهر الحياة الطبيعيّة في الأماكن المرتحل إليها، ثم انتقض سلباً، وجاء الإثبات سلباً، فاستدرك الرحالة أوصافاً للموصوف توازن الخبر المنقول، فتقلّل من تأثير سلبيته. هذا الأمر جعل كل جملتين متعاكستين ترتبطان فيما بينهما وفق قاعدة الربط الخطيّ الخلافي (بالأداة)، فكل جملتين متتاليتين في النص ثانيتهما تخالف الأولى ترتبطان بأداة ربط[2]. إنّ ترتيب الجمل في الخطاب لا يخلو من أمرين اثنين تبعاً لحتمية الخطية في الكلام، فهي إمّا واردة في البداية أو لاحقة عليها؛ ولذلك تحتاج في بعض الأحيان إلى ربط خطيّ يتعيّن به نوع العلاقة بين الجملة والأخرى[3]، حيث تربط أداة الوصل العكسيّ كل جملتين، وتعبّر عن علاقة منطقيّة بين العنصرين المربوطين.

([1]) انظر المصدر السابق، ص ٥٤٣.

([2]) انظر نسيج النص، الأزهر الزناد، ص ٢٨. استُخدم مصطلح"الأدوات المنطقية" للدلالة على أدوات الربط في العربية، إذ أنها علامات على أنواع العلاقات القائمة بين الجمل، وبها تتماسك الجمل وتبين مفاصل النظام الذي تقوم عليه الخطاب، وهذا شأن الأدوات الموجودة في هذا المبحث لدلالة معنى الوصل العكسي فيها.

([3]) انظر المصدر السابق، ص٣٥-٣٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يُنجز الخطاب عند التلفّظ به، ويتّخذ حيّزاً يكون به كائناً مستقلاً بنفسه، وتترابط جمله، لتشكّل وحدات مركبة، فلا يدركه الفكر إلا منظّماً مرتّباً، وهذا الترتيب تفرضه خطيّة الخطاب، إذ ترد جمله في تتابع ضروريّ[1]، ويبدو ذلك في الأمثلة السابقة إثباتاً ونفياً، بتسلسل الجمل القصيرة المرتبة المنتظمة بأداة الوصل العكسي، في فصلها بين وصفين متناقضين للموصوف نفسه، وصف موجب، ووصف سالب، مثال ذلك:

أولاً: من الإيجابية إلى السلبية:

١ – يصف الرحالة المكان بإيجابيات عديدة، فيبدو بصورة مشرقة، بيد أنّه سرعان ما يتغيّر عند النظر إلى ما بعد أداة الوصل العكسي، ويبدو الأمر في الخطاب الآتي:

إيجابية					سلبية	
هواء معتدل	وماء صحيح	وطعام نظيف	وأضداد مجتمعة	إلا أنّ	أكثرهم معتزلة	وهي من أهلها خفيفة
وخيرات كثيرة	وأسعار رخيصة	وعلم ودراية			ومدنها قليلة	

(١) انظر السابق، ٤٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يوحي الوصف بانتقال من الإيجابيّة إلى السلبيّة رغم الأوصاف العديدة الموجبة المذكورة بداية، إلّا أنّ الرحالة لا يبقي هذا المؤثر الإيجابيّ دون انزياح، فيعطي أوصافه نسيجاً لغويّاً متبايناً، وينحو بذلك نحو السلبية غير المتوقعة.

٢- يصف الخطاب مكاناً طيّباً، ثم يفاجئ المتلقي بسلبيات كثيرة تخرج المكان من الوصف السابق، وتُظهره بصورة مغايرة تماماً، ومثال ذلك :

إيجابية		سلبية		
حصينة طيبة	غير أنّ	أهلها غاغة	والقتل عندهم عادة	وليس لمذكرهم فقه ولا عبادة
		لسان قبيح	وفسق فضيح	لا يشبع خبزهم
		ولا ينقضي هرجهم		

يبدأ الوصف موجباً ثم يتجه نحو السالب، ويستمرّ ذلك في أوصاف عدة، ويأخذ بذلك بعداً جديداً بفعل الارتباط الحاصل بين الإثبات والنفي في تقبيح صورة الموصوف، ليكون الخطاب بذلك واقعاً في السلبيّة التامة.

٣- يبيّن الخطاب الموصوف بدلالة إيجابية، تزول عنه بالنظر إلى ما بعد أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

إيجابية		سلبية
أمرهم شورى بينهم	غير أنّهم	متى اتفقوا على شيء، وعزموا عليه، جاء أرذلهم وأخسّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يبدو الأمر في قمّة الإيجابيّة، لكنّه ينتقض بأداة الوصل العكسيّ، فتعقد مقارنة خفيّة بين الحالتين المتعاكستين، توحي بالسلبيّة التامة التي يريد الرحالة إيصالها، على عكس ما هو متوقع من بداية الوصف.

٤- يرسم الخطاب المكان بأجمل صورة، ثم يُظهر ساكنيه بأقبح وصف، فيبدو نسق خطابيّ بمفارقة غريبة تتضح في الآتي:

إيجابية				سلبية		
لا بها حرّ	ولا براغيث	ولا هوام	إلّا أنّها	جنة يرعاها بقر	قوم غتم	لا سخاوة
				ولا ظرافة	تحت عمائمهم فجّار	وفي معاملتهم فساد

يُوظّف النفي توظيفاً إيجابيّاً، بيد أنّ هذا الأمر لا يطول، وتأتي أداة الوصل العكسيّ بما لا يُتوقع إغراقاً بالسلبيّة الموحية بالمفارقة العجيبة.

ثانياً: من السلبية إلى الإيجابية:

١- يبدأ الخطاب بوصف سلبيّ للمكان، إلّا أنّه يجد له وصفاً إيجابيّاً يذكر، فيقدّمه بعد أداة الوصل العكسيّ، كالمثال الآتيّ:

سلبية		إلّا أنّ	إيجابية
وهي مباخس قليلة الثمر	قشفة		لهم مواشٍ كثيرة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢- يصف الخطاب صورة سلبية للمكان، ثم يستدرك بوصف إيجابي، كالمثال الآتي:

سلبية		إيجابية
حارة في الصيف	إلا أنّ	ليلها طيب

٣- يصف الخطاب الموصوف وصفاً عادياً، فلا يبدو مهمّاً أو مميّزاً، ثم يستدرك ما فات وصفه من إيجابيات تُذكر للمكان الموصوف، فيذكرها بعد أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

سلبية		إيجابية		
ليست بالكبيرة	إلا أنّها	رحبة	منعّمة	رخيصة الأسعار

يوحي الوصف بانتقال من السالب إلى الموجب، وذلك ما لا يتوقعه المتلقي، فلم يصل الموصوف إلى درجة عالية من السلبيّة في نظر الرحالة، لذلك يجد له مخرجاً منها، ويدخله في إيجابيّة مصطنعة نوعاً ما، يرضي بها الرحالة موصوفه الذي يبدو تعاطفه معه؛ فيوازن طرفي معادلة الوصف.

نقل خطاب أدب الرحالة وصف المكان من زوايا عدة، فبدا مزدوجاً مركباً، ولابُدّ من الإشارة إلى أهميّة هذا الازدواج في إيصال الوصف، حيث يُعدّ منتجاً للخطاب، وناتجاً عنه في

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

آن واحد، فيتمثل وجود الموصوف هنا فيه، وتنعكس صورته الموجبة أمام مـرأى الوصـف السلبيّ، فيصل الرحالة إلى مبتغاه في وصله العكسي، وتتضح صورة المكان وانعكاساتها.

وقد ينشئ الرحالة في الوصل العكسي معادلة وصليّة لا تهدف إلى الإيجاب أو السلب -كما سبق- بل تثقل طرف واحد، لتكثيف دلالته هو بغض النظـر عمّـا أحـاط بـه مـن موصوفات؛ وذلك بتخصيص الوصف به، واكتمال الحدث بوجوده، فلا وجود لتكوين الوصف إلا به. يتضح الأمر في الآتي:

١- يُوظّف الخطاب أداة الوصل العكسي توظيفاً مغايراً، يبدو فيه الموصوف بعـدها هدفاً مرتجى من الخطاب كلّه، ومثال ذلك:

العدم		إيجابية
لا تُسلك	إلا	في مواضع معروفة

٢- ينحصر الوصف المقصود بما بعد أداة الوصل العكسي، فيـأتي الخبـر بعـدها مقـصد الخطاب، فلم يأتِ بما قبلها إلّا من أجل بيان أهميتها، ومثال ذلك:

العدم		إيجابية
لا يكون في مكان	إلا	في النيل

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فليس هذا – إذن– نفياً، ولكنّه أسلوب من أساليب الحصر في العربية[1]، فـأداة النفـي مستعملة لا لنفي الفعل عن الفاعل أو نائبه، بل لتأكيد قيامه به أو وقوعه عنه، وهذا لا يتـأتّى إلّا في المذكور، بعد أداة الوصل العكسي المسماة هنا "أداة حصر".

ويظهر في المجموعة المنفيّة أمثلة مختلفة للوصل العكسي، منها ما أفاد التلازم مثل: (..... إلّا وقام.....)، إذ يتلازم الوصل مع الحدث في آن واحد. ومنها ما أفاد الوصـل الوجوديّ مثل: (..... إلّا وبها.....)، فيقترن الوصل مع مع وجود ما يسعى الرحالة إلى إثباته. ومنها ما أفاد الوصل التخصيصي مثل: (..... إلّا من كان.....). فالرحالة ليس واصفاً معرفيّاً فقط، بل هو أيضاً واصف اجتماعي لما يرى من عوالم ترحاله.

تقوى التجربة الترحالية، ويتفاعل الفكر مع العالم المحيط، هذا العالم الـذي يطـرح المشابهات والمتماثلات أمام الرحالة، ويطرح معها إشكاليّة البحث عن جديد ينقله، ويـصوّره لمتلقيه. ومهما كانت صعوبة البتّ في هذا الإشكال، فإنّنا نخرج بنتيجتـين أولّهمـا: تفاعـل الرحالة مع كلّ من: مظاهر الطبيعة، والكائن البشري الذي يقدّم الواقع ويؤوّله، والحـضارة الإنسانية المتغيّرة من مكان إلى آخر، ثانيتهما: أنّ عمدة التفاعـل، وأساسـه هـو المماثلـة والمشابهة والمقابلة[2]، مهما كان التصوّر الذي يريد الرحالة إيصاله. وسيتّضح الأمر جليّاً في المجموعة الثانية للوصل العكسي في الصفحات القادمة.

([1]) انظر بناء الجملة، محمد حماسة، ص ٢٨٢.

([2]) انظر التلقي والتأويل، محمد مفتاح، ص ١٩٤.

(*) ارجع للأمثلة (١: ٢: ٣..... ١: ٢: ٧).

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢: وصل موصوفين مختلفين

يصف الخطاب في هذا النمط موصوفين مختلفين، بصورتين مختلفتين، فيبدو تفضيل موصوف على آخر، باستخدام أداة الوصل العكسي، وفي ما يأتي أمثلة ذلك:

٢: ١ الوصل المثبت

موصوف (١) + أداة الوصل العكسي+ اختلاف الموصوف(٢) عن الموصوف (١)

- وهو حجر يشاكل الرخام إلّا أنّه أشدّ بياضاً هـ ٣٦٣.
- هي خصبة إلّا أنّ المنصورة أخصب وأعمر منها ص ١٠٤.
- العجلانيّة قرية كبيرة مقابلة لهينين إلّا أنّ هينين في وادي العبر هـ ١٧١.
- وزرع رأسه في الكثرة مقارب لزرع جبل تخلى إلّا أنّ البر في هنوم أكثر.... هـ ٣٥٠.
- وهي أيضاً ناحية على ما وصفنا مذكورة في الأقاليم، غير أنّ طنجة أجلّ م ٢١٥.
- حسنة البيوت على ما ذكرنا من الشاش، غير أنّ هؤلاء أسلم صدوراً وأقل تخليطاً م ٢٤٨.
- الصغانيان مدينة أكبر من ترمذ إلّا أنّ الترمذ أكثر مالاً وأهلاً، وللصغانيان قلعة ص ١٦٧.
- وسبيل هذا النهر في الشرب سبيل مصر في الزيادة إلّا أنّ أوقاتها مختلفة، فيركب الأرض وينبسط عليها ما لا يركبه نيل مصر ع ٧٤.
- والكواكب السبعة التي هي النيران والخمسة المتحيّرة وغيرها لها تأثيرات..... إلا أنّ تأثيرات القمر في العالم الأرضي أبين منها لقربه منها وبعدها عنه ع ٧٩.
- أرهق وقهال والورك خليطي إلا أنّ أصل قهال حميري هـ ٢٤٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- هما يتحركان بطبعهما صعدا إلّا أنّ أسبقهما إلى العلو النار ع ٢٦.
- هما يتحركان بطبعهما سفلا عند حركتهما إلّا أنّ أسبقهما إلى السفل الأرض ع ٢٦.
- أوسع من الفسطاط إلّا أنّها متفرقة م ٢١٦.
- وهي في السعة نحو من اصطخر إلّا أنّها أعمر وأجمع للبناء وأيسر أهلاً ص ٧٦.
- بها وباصطخر وباء إلّا أنّ خارج المدينة صحيح الهواء ص ٧٦.
- تقارب في الكبر شيراز إلّا أنّها أصح هواء من شيراز وأوسع أبنية منها ص ٧٨.
- وقد تفعل ذلك الريح الغربية في هذا الفصل إلّا أنّ الأغلب في ذلك الشمال ع ٣٣.

٢:٢ الوصل المنفي

أداة نفي + موصوف (١) +أداة الوصل العكسي+اختلاف الموصوف(٢) عن الموصوف (١)

٢: ٢: ١

- فلم أذق ولا سمعت أن في جميع الدنيا ماء أحلى منه إلّا نهر المنصورة م ٢٠٠.
- فليس مدينة أعمر ولا أكبر ولا أيسر أهلاً منها إلى آخر الإسلام إلّا نيسابور فإنها في العرصة أوسع ص ١٢٢.

٢: ٢ :٢

- والريّ مدينة ليس بغداد في المشرق أعمر منها إلّا أن نيسابور أكبر عرصة منها ص ١١٩.
- ليس بهذه النواحي جبل عظيم مذكور إلا ما ذكرنا غير أنّ جبل سبلان أعظم من دبناوند والحارث سبيل أعظم منهما ص ١١٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعرض الرحالة في هذه المجموعة موصوفاته مرتبة، ويعتمد معياراً في ترتيبهـا، إذ نفصل أداة الوصل العكسي بين كل عنصرين متعاقبين، لنبيّن معيار انتظامها. أفاد هذا نوعـاً من المقارنة بين العنصرين المذكورين، وأكّد قوة الوصف لهما، هذه القوة تتصاعد بعـد أداة الوصل، فتثبت زيادة مستوى القوة في الثاني على الأول كما في الأمثلة الآتية:

١- وصف الخطاب موصوفاً بإيجابية، ثم وصف غيره بإيجابية أكثر، فما ذكر الأول إلّا لبيان قوة الثاني، ومثال ذلك:

إيجابية	غير أن	أكثر ايجابية
هي خصبة		المنصورة أخصب وأعمر منها

٢- يأتي الوصف عادياً مألوفاً للموصوف المذكور قبل أداة الوصل العكسي؛ لإظهار قوة الموصوف الذي بعدها، ومثال ذلك:

إيجابية	غير أن	أكثر إيجابية
وهي أيضاً ناحية على ما وصفنا مذكورة في الأقاليم		طنجة أجلّ

٣- يُظهر الخطاب قوة للموصوف الأول، وتبدو القوة أكثر للموصوف الآخر المذكور بعد أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إيجابية		أكثر إيجابية
والكواكب السبعة التي هي النيران والخمسة المتحيرّة ... لها تأثيرات	إلا أنّ	تأثيرات القمر..... أبين

٤- قد يكون القصد من الوصل العكسي إثبات قوة الموصوف الأول، وتميّزه على الموصوف الثاني كما في:

إيجابية		أكثر إيجابية
تقارب في الكبر شيراز	إلا أنّها	أصحّ هواءً من شيراز

ويلجأ الرحالة أحياناً لإثبات قوة موصوف ثالث، غير الموصوفين المذكورين قبل أداة الوصل العكسي، وذلك مثل:

سلبية	سلبية		إيجابية
بها	وباصطخر وباء	إلا أن	خارج المدينة صحيح الهواء

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يمكن أن ندعو هذه الآليات بآليات التماثل الوصفيّ، التي تفرضها ضـــرورة تفاعـــل الرحالة مع الظواهر والموصوفات من حوله، ومحاولة ربطها مـــشابهة ومقابلـــة، علـــى أن الرحالة أدّى بهذا طموحه، للتعرف على ما أحاط به من إنسانية وعمران وطبيعة، في الأماكن المرتحل إليها؛ ليحقّق نوعاً من التوافق والانسجام، وصلات الوصل بينه وبينها.

أما في مجموعة النفي فيبدو الموصوف الأول بقوة تفوق قوة الإثبات، لكن ما بعد أداة الوصل العكسي يفوق الوصف الذي كان من حق الموصوف الأول، ويبدو الأمـــر بعـــرض الأمثلة الآتية:

١- يرسم الخطاب للموصوف صورة أُحادية لا مثيل لها، فيتميّز على كلّ ما يشابهه، مـــن جهة، ويتميّز على الموصوف الذي يصوّره الخطاب، من جهة أخرى. يبدو الأمر فـــي المثالي الآتي:

نفي الوصف		إيجابية
فلم أذق ولا سمعت أن فـــي جميع الدنيا ماء أحلى منه	إلا	نهر المنصورة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢- يعرض الخطاب سلسلة متباينة من الموصوفات، يبدو بها كلّ موصوف بشكل أُحاديّ متفرّد، وبدرجة مختلفة عن غيره، كالمثال الآتي:

نفي الوصف		إيجابية		أكثر إيجابية
ليس بهذه النواحي جبل عظيم مذكور	إلا	ما ذكرنا	غير أن	جبل سيلان أعظم من دبناوند
				والحارث أعظم منهما

إنّ هذا الترابط يأتي وفق المبدأ الذي تنطلق منه وحدة الكون، والترابط بين أجزائه، وتبادل التأثير بينهما بالتجاذب والتنافر. هذه الوحدة توجب تشابهاً هنا، وتنافراً هناك، ومهما تشابهت الموصوفات فلابدّ أن تتميز واحدة فيها على أخرى أو أخريات، فمسألة تفوّق الموصوف كانت تشكّل قلقاً للرحالة، يفرض عليه اتخاذ القرار في الحكم، فما كان عليه إلّا أن يحكّم نزعته الذاتية في الحكم، قبل التميّز الحقيقيّ للموصوف. أنشأ ذلك وجود حاجز عدم الدقّة النهائيّة، باعتبار تبعيّة الحكم للرحالة الإنسان أولاً وأخيراً، وباعتبار انفصال الموصوف عنه انفصالاً لا يمكن إلغاؤه، وإنما يمكن تقليل مساحته أو توسيعها، وفقاً لحالته النفسيّة الراهنة لحظة وصول مكان ما، ومشاهدة جزئياته، فيوازي الوصف شعور واصفه، ويواكب حجم التغيّرات التي تطرأ عليه، جرّاء تنقلّه من مكان إلى آخر.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣: وصل الجزء بالكلّ

يعرض الخطاب في هذا النمط تصوّراً عامّاً ثم يستثني منه جزءاً لا ينتمي للكلّ الـذي ظهر قبل أداة الوصل العكسي، وفي ما يأتي أمثلة ذلك:

٣: ١ الوصل المثبت

موصوف عام + أداة الوصل العكسي+ موصوف جزء مختلف عن الموصوف الكلّ

١:١:٣

- فيها جميع الحيوان كله إلّا السباع هـ ٢٨٠.
- كلها في مستوى الّا سكندرة فإنّها في جبال ص ١٥٦.
- باديتها جميعاً من عل إلّا النبذ من خولان هـ ٧٤.
- فيها الفصاحة إلّا في قراها هـ ٢٧٩.
- فهو يكون أكثر دهره صاحياً إلّا في أيام الأمطار هـ ٣٥٠.
- هذا بلد قشف قليل العمارة قليل الزروع إلّا ما اتصل بهـا مـن مـستقر الملـك ص ٣٢.
- فوجدها جامدة إلّا ما شد رأسه بجلد الثعلب الأسود فإنّه لم يجمد ع ٧٢.
- وأكلوا لحومها إلّا الرأس والقوائم والجلد والذنب ف ١٣٠.
- والترك كلهم ينتفون لحاهم إلّا أسلبتهم ف ١٣١.
- فأمّا الحرّ فإنك تجده من مصر إلى السوس الأقصى إلّا في مواضع فإن بها جبالاً وبلداناً طاردة والغالب على الأندلس البرد م ٢١٩.
- كلّ ما قارب الساحل جميعاً أملاح إلّا اليسير هـ ٣٠١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- الأنهار فيها ليست بالكبار إلّا نهر الكر ونهر الملك م ٣٠٤.
- كلما اشتد برد موضع في هذا الإقليم اشتد حرّه إلّا سمرقند فإنّها صلية في الصيف م ٢٧٧.
- هو إقليم شديد الحر، إلّا السروات فإن هواءها معتدل وهو قليل الثمار إلّا السروات م ١٠٧.
- تُفضّل تمورها على سائر تمور الحجاز إلّا الصيحاني بخيبر والبُـردى والعجـوة بالمدينة ص ٢٥.
- الغالب عليها كلها الجبال إلّا ما بين همذان إلى الري والى قم فإن الجبـال هنـاك قليلة ص ١١٩.

٢:١:٣

- وأقلّ الفرق اليهود وأكثرهم المسلمون النصارى إلّا أنّ الملـك وخاصـته يهـود ص ١٢٩.
- لكل منبر قرى ومزارع إلّا بيكند فإنّها وحدها، غير أنّ بها من الرباطات ما لا أعلم في بلدان ما وراء النهر وأكثر عدداً منها ص ١٧٥.
- كلهم في قباب إلّا أنّ قبة الملك كبيرة جداً ف ١٦٠.

٣: ٢: الوصل المنفي

أداة نفي+ موصوف عام+ أداة الوصل العكسي+ موصوف جزء مختلف عن الموصوف الكلّ

٣: ٢: ١

- ليس بأرض مصر مدينة تجري فيها الماء دائماً غير الفيوم ص ٤٠.
- ليس لقزوين ماء جار إلا مقدار ما يشرب ص ١١٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- ليس بتلك النواحي بندق إلا بمدينة لاشتر فإنّ بها بندقا ص ١١٩.
- فإنها قرى لا مدينة بها إلّا سهمار ص ١٢١.
- ليس بها نهر إلّا قناة صغيرة للشرب ص ١٢٤.
- ليس بينهما وبين المدينة مياه ولا بساتين إلّا نهر المدينة على باب المدينة ص ١٥٠.
- ليس لها ماء جار إلّا نهر يجري في بعض السنة ولا يدوم ماؤه ص ١٥٤.
- ليست لهم بساتين ولا زروع إلّا مباقل على هذا الماء ص ١٥٤.
- ليس بها عيون ولا أنهار إلّا آبار ومراع ص ١٥٧.
- لا سوق لبكيل غير ورور وغُرق وريدة هـ ٢٤٢.
- لا بأس بلغتهم إلّا من سكن منهم القرى هـ ٢٧٨.
- ليس بالصمّان ماء عد إلّا ما كان مياه العرمة قربها هـ ٢٨١.
- ليس بها بحيرة ولا نهر إلّا الأزرق م ٢٢٩.
- ليس بها ماء جار سوى دجلة ص ٥٣.
- ليس فيها مياه إلّا أنهار ص ٥٦.
- ليس يرتفع اليها من ماء دجلة إلّا شيء يسيير ص ٥٩.
- ليس لهم من دجلة زرع ولا شجر إلّا الشيء اليسير ص ٥٣.
- ليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلّا شيء يسير ص ٦٣.
- ما علمنا أحداً منهم جمع من العلم بأبواب الدواوين إلّا نفراً يسيراً ص ٨٨.
- ليس بين المدينة ومكة منزل يستقل بالعمارة والأهل جميع السنة إلّا الجحفة ولا بين المدينة والعراق مكان يستقل بالعمارة والأهل جميع السنة مثل فيد ص ٢٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- لم يعرف ما حواه هذا الإقليم من ذلك أجمع إلّا بابل لفضل موضعها وجلالة صقعها ٠٠٠٠ع ٤٨.
- فلم أرَ من الكواكب إلّا عدداً يسيراً ف ١٥٤.
- ليس بجميع بمكة – فيما علمته- شجر مثمر إلّا شجر البادية ص ٢٣.
- ليس بمكة ماء جار ألّا شيء بلغني بعد خروجي عنها أنه أُجري إليها ص٢٢.
- فلم أر ولم أسمع أن به شجراً مثمراً إلّا نخيلات ص ٢٣.

٣: ٢: ٢

- ليس به نهر تجري فيه السفن إلّا بناحية الخزر م ٣٠٧.
- لا تجري السفن إلّا بجيحون ونهر الشاش م ٢٧٧.
- ليس بجميع الجبال نخيل إلّا بالصيمرة والسيروان وشابرخاست وهي نخل قليلة ص١١٩.
- لا نهر فيها إلّا بالعشة والبطنة ففيها غيول هـ ٢٤٩.
- ليس يُعرف في الأرض معدن للمرجان إلّا بها ص ٣٤.
- ليس يوجد الأسود منها في العالم إلّا في هذا الصقع وما قرب منه ع ٧١.
- ليس فيه بحيرة إلّا بخوارزم مالحة وأخرى بسجستان وأخرى ببخار عذبتان م ٢٧٧.
- ليس لهم اتصال بشيء من الممالك والعبارات إلّا من وجه المغرب ص ٣٥.

٣ : ٢: ٣

- ليس من بلد ولا رستاق ولا ناحية إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران إلّا القابيل ص ٧٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تبدو في هذه الأمثلة وظيفة الانفعال وتتّضح بعلاقة التداخل بين الرحالة والموصوف هذا التداخل يعنى بالنواحي العملية أو القوة أو الجمال أو الطبيعة، كلّ هذه العلاقات تبثّ انفعال ارتباط الرحالة بموصوفه، ويأتي بعد ذلك بانفصال ما يحدث للموصوف، انفصال الجزء عن الكلّ.

في هذا مماثلة كونيّة أيضاً، بيد أنّ هذه المماثلة تقوم على ركنين هما: الأصل، والفرع، أو المستثنى منه، والمستثنى. فالأصل هو الذي يقاس عليه الفرع؛ لأن الأصل يكون معروفاً خصباً بالوصف ممتلئاً به، حيث يستوعب الفرع أو يمنحه شيئاً من وجوده لجامع عام ينتظم لأمر.

ربما تكون درجات الانفصال بين الكلّ وجزئه تصورات خاصة بوجود شيء، ووجود ما يؤكّده. وتبيّن أداة الوصل العكسي وظائف هذه التصورات الكامنة في الكلّ، وفق نزعة تجاذب وتنافر تحكم الموصوف الجزء و كلّه، وتبادل التأثير بينهما على مبدأ الوجود للكلّ وعدم الوجود للجزء. وعليه فإنّ هويّة الجزء في وجود كلّه إلّا أنّ وجود الكلّ لا يعطيه تجاذباً ليضمّه إليه، فيبقى في الجانب الآخر لأداة الوصل العكسي، ويبقى الكلّ موحياً بالوجود الذي لا يشعر بنقص ما أو خلل يتخلّله، بالرغم من رفضه هوية الجزء، واستقلاله عنها.

يبدو الأمر في الأمثلة الآتية:

١- يبدأ الخطاب بوصف عام للموصوف الكلّ، ثم يصف جزءاً منه بوصف يخالف فيه الكلّ، كالمثال الآتي:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

سلبية		إيجابية
كلّ ما قارب الساحل جميعاً أملاح	إلا	اليسير

٢- يبدو الوصف عموماً، ثم يتّخذ شكلاً خصوصياً، كالمثال الآتي:

سلبية		إيجابية
الغالب عليها كلّها الجبال	إلا	ما بين همذان إلى الري

٣- يصف الخطاب الموصوف وصفاً سلبياً، يُظهر استياء واصفه، ثم يُخرج من دائرة الوصف جزءاً لا ينطبق عليه الوصف، ومثال ذلك:

سلبية			إلا	إيجابية
هذا بلد قشف	قليل العمارة	قليل الزروع		ما اتصل بها من مستقرّ الملك

نظر الرحالة إلى الموصوف نظرة عموم، فعمّم الوصف، وأطلقه دون اهتمام بالجزء. نظر إليه لا على أنّه تصوّر شيء واحد، بل على أنّه نمط من الأنماط المركبة الدالة على وجوده، ثم استثنى جزءاً منه لم يشكّل وجوداً له، في الأنماط المركبة. فكلّما زادت الخصوصيّة في هذا الجزء زادت قوة الأجزاء المركّبة التي يبنى عليها حكم الوصف؛ أي أنّ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المدرك التصوريّ الكلّ هو القوة الوحيدة التي ينظر إليها في هذا الوصل، سواء أكان الأمر موحياً بالإيجابية أم السلبية.

يأتي الوصف بفاعلية مفوّضة من الرحالة نفسه، هذا الرحالة الذي شاهد، وعاين، وقرّر. ويربط الوصل العكسيّ بين الكلّ وجزئه، وفق قانون الاستثناء الذي يخرج اسماً من الحكم المقرّر لما قبله، بتخصيص صفة عامّة، توجب إخراج الجزء من الكلّ كما في:

١- يؤكّد الخطاب وجود الوصف في المكان المقصود، ثم يستدرك منه ما لم يؤكّده بذكر أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

إيجابية		سلبية
فيها جميع الحيوان كلّه	إلا	السباع

٢- يُظهر الخطاب الموصوف بصورة سلبية، ثم يستثني من جزءاً لا يدخل ضمن الوصف السابق لأداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

سلبية		إيجابية
هو إقليم شديد الحر	إلا	السروات

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٣- يقع الوصف المقصود على ما قبل أداة الوصل العكسي، ولا يتمّ لما بعدها، كالمثال الآتي:

إيجابية	إلا	سلبية			
وأكلوا لحومها		الرأس	والقوائم	والجلد	والذنب

فإنّ مضمون هذا التركيب يثبت الوصف لما قبل أداة الاستثناء، وينفيه عمّا بعدها، وفي هذا نفيٌ ضمنيٌ لا تصريحيٌ[1]، لوقع الوصف، فيما بعد أداة الوصل العكسي.

يأتي الأصل هنا مقدمة للفرع الذي يتأخّر، بأداة الوصل العكسيّ، ليصبح هو المقصود بالوصف ومبتغى الرحالة به، فلا مشابه له من كلّه، ولا مثيل له بينه، فتوحي دلالة تأخيره باختلافه عنه. ويبدو أمر تقديم الفرع على أصله أيضاً في أمثلة النفي السابقة.

نجد أن رحالة القرن الرابع الهجري ينطلق من فرضية مؤدّاها اتخاذ موصوفه نموذجاً أمثل، لردّ كل ما يحيط به إليه، باعتباره المرجع الأساس لما يصف، وبؤرة وجوده. وفي ذلك يقع الموصوف في المقام الأول للوصف، وما جاء بما قبل الوصل العكسي إلّا تقديماً له. وعندما يذكر الموصوف بعد التقديم له تثبت بذلك عناصر عملية الوصف في حركيّة تفاعلها، لإيصال الموصوف وفق شبكة وصليّة متناسقة. ومثال ذلك:

([1]) ليس المقصود الاستثناء نحوياً وإنما دلالياً أيضاً. انظر أبناء الجملة، محمد حماسة، ٢٨٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١- لا يوجد موصوف غير المذكور بعد أداة الوصل العكسي، فهو المبتغى من تركيب الخطاب، ويبدو ذلك في المثال الآتي:

نفي الحدث		إيجابية
ليس بها نهر	إلا	قناة صغيرة للشرب

٢- ينفى الخطاب الحدث، ويتّجه الأمر نحو السلبية، بيد أنّه يجد ما يوحي بالإيجابية، فيعرضه بعد أداة الوصل العكسي.

نفي الحدث			إيجابية
ليس بها بحيرة	ولا نهر	إلا	الأزرق

٣- رغم وجود الموصوف في كلّ مكان إلّا أنّه في المكان الموصوف يصل إلى التميّز الذي لا يُضاهى، فيعطيه الخطاب طابع التفرّد، حتى لو وُجد الوصف في أمكنة عديدة، وبأشكال مختلفة.

نفي الحدث		إيجابية
ليس يعرف في الأرض معدن للمرجان	إلا	بها

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وهناك نوع آخر من هذا الوصف الاستثنائي، وذلك في مقارنة نسقيّة، تنظّم الكلّ مع جزئه، فتميّز الجزء على كلّه، وتعطيه قوة الوصف المقصودة. وذلك مثل:

إيجابية		أكثر إيجابية
كلّهم في قباب	إلا أنّ	قبّة الملك كبيرة جداً

رأى الرحالة إذن في اختلاف الجزء عن كلّه مسلكاً وصفياً، يجعل المتلقي يشاركه عملية فصلهما، وتمييز اختلافهما، ليصبح من السهل بعد ذلك الوصول إلى مقصديّة الوصف وأثره، خلال وبعد عملية الوصف، فوصف خطاب أدب الرحلات موصوفاً متميّزاً، وربط هذا التميّز بمقارنة الموصوف الجزء بكلّه، بهدف إظهاره، وإعلاء مكانه.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمة

عرض خطاب أدب الرحلات الواقع بصور لغوية عديدة، دلّت على ما يكتنه الرحالة من خبايا نفسيّة إثر ما يواجهه من مخاطر الطرق وأهوالها. جاءت لغة خطاب أدب الرحلات ضمن قوالب معيارية عديدة؛ لينسجم الخطاب ويتماسك؛ فيؤثّر في متلقيه، ويجعله يستشعر الترحال، والوصف.

شاع الوصف بالتركيب الاسميّ، وقلّ الاعتماد على الحدث في الوصف نظراً لما يوحيه التركيب الاسميّ من ثبات وديمومة. وأكثر الخطاب من مفردات اسمية دالة على خيرات الأرض وخصوبتها، وحصانة المدن ومأمنها، ووصف مظاهر الحضارة فيها؛ فكأن الرحالة يبحث عن مؤنس له في ترحاله، فيجد ملاذه الآمن في الوصف.

وصف الخطاب التعامل الإنساني حسنه وسوءه، وبالغ في إظهار هيئة المرتحل إليهم خارجياً وداخلياً؛ ليرسم معالم إنسانية عامة، ويقارن بينها وفق طرائق لغوية عديدة. ويبدو أن كلّ جديد أبهر الرحالة، فأكثر من أسلوب التفضيل، وأراد أن يشوّق متلقيه، فأكثر من أسلوب الوصل العكسيّ، بوساطة نمط متسلسل يظهر الوصف وضده، في إطار واحد.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فهرس الجداول

الموضوع	الصفحة
جداول وصف الطبيعة	٣٣
جدول وصف المياه	٣٣
جدول وصف التربة و المزروعات	٤٦
جدول وصف المناخ	٥٦
جداول وصف مظاهر الحضارة	٥٩
جدول وصف المظهر الديني	٥٩
جدول وصف المظهر العمراني (وصف البناء)	٦٤
جدول وصف المظهر العمراني (العمران السكاني)	٦٧
جدول وصف المظهر السياسي	٧٠
جدول وصف المظهر الاقتصادي	٧٤
جدول الوصف الإنساني	٧٨
جدول الوصف بالاسم	٧٨
جدول الوصف بالفعل	٨٤
جدول الوصف بالأداة	٨٨
جداول آلية التفضيل	١٠٢
جدول أنماط الإثبات	١٠٢
جدول أنماط النفي	١٠٨
جداول آلية الوصل العكسي	١٢٢
جداول وصل طرفين مختلفين للموصوف نفسه	١٢٢
جدول الوصل المثبت	١٢٢
جدول الوصل المنفي	١٢٧
جداول وصل موصفين مختلفين	١٣٨
جدول الوصل المثبت	١٣٨
جدول الوصل المنفي	١٣٩
جدول وصل الجزء بالكل	١٤٤
جدول الوصل المثبت	١٤٤
جدول الوصل المنفي	١٤٥

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة المراجع

- إبراهيم ، عيسى علي ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج٣، قدم له وحققه وشرحه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٩٨٤م.
- ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج١، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ابن فضلان ، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد ، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، تحقيق سامي الدهان، وزارة الثقافة، دمشق، ط٢، ١٩٧٨.
- ابن هشام ، جمال الدين أبو محمد عبد الله ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٢م .
- أبو سعد، أحمد ، أدب الرحلات ، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦١م.
- أبو عيانة، فتحي محمد، محمد خميس الزونة، عيسى علي إبراهيم دراسات في الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
- أحمد ، نفيس ، الفكر الجغرافي في التراث ، ترجمة فتحي عثمان ، دار القلم، الكويت، ١٩٧٨م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- استيتية ، سمير ، للسانيات المجال، والوظيفة، والمنهج ، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٥م.
- الاصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ، مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١م.
- البطاشي، خليل بن ياسر، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، سورة الأنعام، خليل بن ياسر ،دار جرير، عمان، ٢٠٠٩م.
- براون و يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق منير التريكي ومحمد لطفي الزليطني، الرياض، ١٩٩٣م.
- البقري ، أحمد، أساليب النفي في القرآن ، المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٩م .
- الجرجاني،عبد القاهر، أبو بكر عبد القاهر بن محمود دلائل الإعجاز، تحقيق محمد شاكر، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- الدفاع ، علي عبد الله ، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية ، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٩٣م.
- حسين، محمد الخضر، الرحلات، جمعه وحققه علي الرضا التونسي، المجمع العالمي العربي، دمشق، ١٩٧٦م.
- حصباك ، شاكر ، في الجغرافيا العربية ، دراسات في التراث الجغرافي العربي ، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٧٥م.
- حميدة، عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب، ، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- خطابي ، محمد ، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- رينيه كلوزييه ، تعريب عبد الرحمن حميدة، تطور الفكر الجغرافي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١م.
- الزناد ، الأزهر، نسيج النص ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- زياد، تقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٢م.
- سالم، سيد أحمد، أصول البحث الجغرافي، دراسة في إعداد الباحث والبحث الجغرافي دار الزهراء، الرياض، ٢٠٠٧م.
- سلطان ، منير، الفصل والوصل في القرآن الكريم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م.
- الشامي ، صلاح الدين ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
- الشامي ، صلاح الدين ، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- صفر، البشير، الجغرافيا عند العرب نشأتها وتطورها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.
- ضيف ، شوقي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م.
- العاقد، أحمد، تحليل الخطاب الصحافي من اللغة إلى السلطة،. دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- عبد اللطيف، محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
- عبد المجيد، جميل، البديع في البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- عبد ، محمد ، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.
- العجيمي، محمد الناصر، الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجاً، ، مركز الناشر الجامعي، تونس، ٢٠٠٣م.
- العرود،أحمد ياسين، تحول الخطاب النثري في عهد النهضة، أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠٥م.
- العقيلي، بهاء الدين عبد الله بن عقيل ، شرح ابن عقيل، ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٧م.
- عكاشة، محمود، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، ، دار النشر للجامعات، القاهرة، ٢٠٠٥م .
- فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م.
- الفقي، صبحي إبراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- فهيم، حسين، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور أنثوجرافي، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٨٩م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- الفيل، محمد رشيد ، أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، الجمعية الجغرافية الكويتية، نشرة دورية، الكويت، ١٩٧٩م.
- بحيري ، سعيد حسن ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٧م.
- بوجراند ، روبرت ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- كراتشكوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة عثمان هاشم، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م.
- كوين ، جون ، اللغة العليا، النظرية الشعرية ، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، ١٩٩٩م.
- لاينز ، جون ، اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
- مال الله، علي محسن عيسى، أدب الرحلات عند العرب المشرق: نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، ، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٨.
- مجموعة من المؤلفين، أدب الرحلة والتواصل الحضاري، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ١٩٩٣م.
- مداس ، أحمد ، لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٧م.
- المدني، سليمان، أكلة لحوم البشر، عن مخطوطة لابن فضلان، دار الأنوار، دمشق، ١٩٩٥م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- المسعودي، أبو حسن علي بن حسين التنبيه والإشراف، طبعة جديدة ومنقحة، دار ومكتبة الهلال، بيروت،١٩٨١م.
- مفتاح، محمد، التلقي والتأويل،المركز الثقافي العربي، بيروت،١٩٩٤ م .
- المقدسي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الملائكة ، نازك ، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨١م .
- مودّن ، عبد الرحمن ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ٢٠٠٦م.
- نصار ، حسين، أدب الرحلة ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩١م.
- نمر ، هادي، التراكيب اللغوية في العربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٧م .
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٩م.
- الهمداني ، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٧م.
- الهيتي ، صبري فارس ، الفكر الجغرافي، نشأته ومناهجه، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدوريات

- الربابعة ، أحمد ، إسهامات بعض الرحالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة، عدد١، مجلد ١٠، ١٩٨٣م.
- زيتوني ، لطيف ، السيمولوجيا وأدب الرحلات ، عالم الفكر، مجلد ٢٤، العدد٣، ١٩٩٦م.
- مجلة ديوان العرب www.DiwanalArab
- المراكشي ، محمد صالح ، مفهوم الرحلة من خلال كتاب محمد بيرم الخامس" صفوة الاعتبار في مستودع الأمصار والأقطار" ، حوليات الجامعة التونسية، عدد١٧، ١٩٧٩م.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

Abstract

The Discourse of Travels in the Fourth Century of al-hijra

Travels were eminent during the fourth century AH especially with the increasing number of travellers who had numerous objectives and purposes of travelling. Their travels were characterized with a general pattern and were also governed by the same linguistic system. The discourse of travels literature described nature using certain metaphors. Moreover, it described all aspects of civilization whether religious, economical, political or social. In addition, it was interested in describing Man physically and morally in a very accurate way.

The discourse was cohesive and coherent, as it used the methods of topic and commit, repetition, synonym and antonyms. Furthermore, it used both compound words and adjectives with a view to conveying meaning properly .

The discourse was also characterized with very special linguistic mechanism such as "Comparison" which concentrated on the described revealing its particularity in very special linguistic images. What is more, there was a use of the mechanism of reverse description which appeared to be a general feature of this discourse which also described "place" from Various perspectives, giving both its advantages and disadvantages or comparing it with another described .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University